قِصَّتِي مَعَ الْمُلْحِدِيْن
والْمُشَكِّكِيْن والْمُوسْوِسِيْن

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م

قِصَصِي مَعَ الْمُلْحِدِيْن والْمُشَكِّكِيْن والْمُوسْوِسِيْن

مَعَ بَيَانِ طُرُقِ إِقْنَاعِهم وَهِدايَتِهم

تأْليف

أحْمد بن ناصر الطَّيَّار

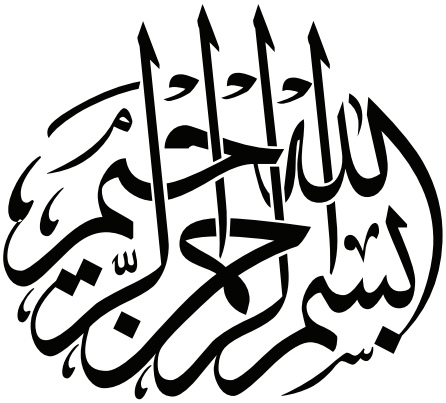
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، **أما بعد:**

فقد دارت حواراتٌ ونقاشاتٌ بيني وبين بعض المشككين في العقيدة، وبعض الملحدين الذين كانوا مسلمين في الأصل، ولكن انتكسوا لأسباب كثيرة، فدوّنت نقاشي معهم في حينها، وذلك لأخذ العبرة والعظةِ من حياتهم وقصصهم، ولِمَعرفة ضحالة شبههم، وسهولة إقناعِ الصادق منهم، وأنهم لا يملكون حجة صحيحة، ولا يملكون قناعةً راسخةً ثابتة، بل عندهم شكوكٌ وأسئلةٌ مُقلقلة، يقذفها الشيطان في قلوبهم؛ لبعدهم من الله ﷻ.

وهذه القصص عبارةٌ عن رسائل بليغةٍ إلى:

١ ـ أهل الحيرة والتشكيك والإلحاد، فليعتبروا بمن سبقهم، ولا يكونوا عبرةً لغيرهم، وهي كفيلةٌ بحول الله في إزالة شبههم، والإجابة عن أسئلتهم ـ إن كانوا يطلبون الحق ـ.

٢ ـ الدعاة والمثقفين، وذلك بِمُحاورة هؤلاء باللين واللطف، ودراسة طرق إقناعهم، وزوال شبهاتهم، وقد لا يستغرق الحوار معهم وقتًا طويلًا، فصاحبة القصة الثانية، وهي فتاةٌ عاشت سنتين بين الشك والإلحاد، والعذاب والفساد. لم أُمض أكثر من ساعة ونصفٍ في حواري معها، وكانت كافيةً في هدايتها وتوبتها، وقناعتها التامة بالدين.

٣ ـ عامة الناس، وذلك بأن يزدادوا قناعةً في دينهم وعقيدتهم، وألا يقعوا في أسباب الانتكاسة التي وقع بها هؤلاء، وأنْ يسألوا الله الثبات على الدين والعقيدة الصحيحة.

٤ ـ الْموسوسين بجميع أنواع الوسواس:

١ ـ الوسواس القهري.

٢ ـ الوسواس بأنّهم مُصابون بالجانّ.

وأضفت إليها حوارات درات بيني وبين الْمُصابين بداء الوسواس القهري والعقدي وغيرِهم.

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الجهد اليسير، والعمل القليل، وأنْ يُبارك فيه، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، إنه سميعٌ قريبٌ مُجيب.

وأتقدم بالشكر الجزيل لدار الحجاز، التي رأيت منها التعامل الحسن، والأمانة والإتقان، وهي تقوم بدور كبير في نشر ما ينفع المسلمين في دينهم ودنياهم، ويعتنون بالكتب التي تقوم على منهج السلف الصالح.

وأشكر كلّ من ساهم في مراجعة هذا الكتاب، وتدقيقه إملائيًّا ونحويًّا، فجزاهم الله خيرًا وبارك فيهم.

أحمد بن ناصر الطيار
إمام وخطيب جامع
عبد الله بن نوفل بالزلفي
البريد الإلكتروني:
ahmed0411@gmail.com
رقم الجوال: ٠٥٠٣٤٢١٨٦٦

القصةُ الأولى

قصتي مع الطالب المشكك في الدين

دخلت فصلًا في أحد المراحل الثانوية لِأُلْقي عليهم موعظةً نافعة، وقصةً هادفة، وما إنْ بدأت بالحديث، واسْترسلت بالكلام، حتى قاطعني طالبٌ بشكل غريبٍ ومُلفت، فقال: يا أستاذ: قلت في مُحاضرتك السابقة، التي ألقيتها علينا: بأنَّ الغرب لا يريد بنا الخير والنموّ!، وها نحن نراه ساعد السوريين ووقف معهم!، فأنتم واهمون، فقلت: هل هذا سؤال؟ فقال: لا بل هي معلومة، أحببت أنْ أصحح بها معلوماتك!!، فقلت: أشكرك على سؤالك وطرحك، وقد سمعت منك، أتسمح لي أن تسمع مني؟ قال: بالطبع، قلت: كم مضى على طلب الشعب السوريّ لحريَّته وكرامته؟ فضج الطلاب جميعًا: سنتان!، فقلت: ماذا قدمت لهم من شيءٍ ملموسٍ ونراه؟ فسكت، فقلت: ألم تتدخل في مالي مباشرةً وقتَّلت الشعب الذي طالب بتطبيق الشريعة؟ قال: بلى، فقلت: لِمَ لَمْ تتدخل هي والغرب في سوريا إنْ كانوا صادقين ومحبين لرغبة الشعوب؟ فلم ينطق بكلمة؟..

بعدها خرجت من الفصل متحيِّرًا من طريقةِ سؤالِه وطرحِه، فسألت عنه معلميه، فأجاب الجميع بأنه كثيرًا ما يسأل أسئلةً مُشكِّكةً في الدين والعقيدة، وبعضهم قال إنه ملحد، والآخر بدأ بالسب والشتم!.

فسألتهم: هل ناقشه أحدٌ نقاشًا ودِّيًّا؟ فأجابوا بـ«لا»، عدا الْمُرشد الطلابي كلمه بكلامٍ عامٍّ.

ففي يومٍ من الأيامِ، أرسلت له طالبًا يستدعيه، فأبى الحضور بحجة انشغاله بالحصص، فمكثت ساعةً ثم ذهبت إليه وطلبت منه الحضور، فكان مُتوتِّرًا جدًّا، فبدأت أُحادثه ونحن في طريقنا لغرفتي، وأُضاحكه، فخف ما كان يجده، فدخلنا الغرفة، وقد أعددت له قهوةً وماءً، فأكرمته ومازحته، ثم بدأت أثني بما أعلمه منه من بشاشته أحيانًا، وجَرَّأْتُه على إبداء ما يراه، وأنها صفةٌ لا تكون إلا في الأقوياء.

ثم قلت له: أتسمح لي أنْ نتناقش مناقشةً أَخويَّةً، مبنيَّةً على حسن الظن والمودة، فأنا أكنَّ لك الحب والاحترام، فإن كنت لا توافق فلا أُلزمك، فقال: بل أنا على أتمِّ الاستعداد، وعلى الرحب والسعة.

فقلت له: سنجعل نقاشنا عن الأشياء الأساسية الكليَّة، وما ينتج عنها من جزئيِّاتٍ نرجئها بعد ذلك، ثم بيَّنت له طريقتي في الحوار، وأنْ نُحكِّم العقل والمنطق، وأنا أعاهد نفسي وأنت كذلك أننا إذا اقتنعنا من شيءٍ أنْ نوافق عليه، وإذا لم نقتنع منه لا نوافق أبدًا، وإنني أسعد باعتراضك أكثر من سعادتي بموافقتك، لأني لا أريد المجاملات، فإنك إنْ خادعتني أو جاملتني لن تخدع أو تُجامل نفسك، فالباب مغلق، والجوال مقفل، وكانت الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا.

قلت له: أتوافقني بأنَّ من يقرأ كتابًا لا بدّ أنْ يكون له هدفٌ من قراءته؟؟

قال: نعم.

قلت: فبماذا تقرأ ولماذا؟

قال: أقرأ لعبد الله القصيمي ـ وعدَّد أناسًا لهم أفكارٌ منحرفةٌ ـ وأقرأُ لهم لأنظر إلى آراءهم وأفكارهم.

فقلت: سبحان الله! عقلك الثمين، تملؤه بشيءٍ لم تتحقق جودته وأصالته، وتضع فيه ما ليس له؟ والعقل متى وُضع فيه ما لا يتناسب معه أفسده وأتلفه، وسبَّب لصاحبه الأمراض النفسية، والمشاكل المميتة، انظر إلى سيارتك، كلُّ صندوقٍ يُوضع فيه ما يُناسبه، صندوقٌ يُوضع فيه زيت كذا، صندوقٌ يُوضع فيه ماءٌ، صندوقٌ يُوضع فيه بنزين.

فإن الله قد خلق العقل وأرسل له ما يُناسبه، وهو القرآن والوحي المطهَّر، فإنْ ملأته بزبالات الأفكار: تعطَّل العقل عن وظيفته، وكنت كمن عبَّأ سيَّارته ماءً بدلًا من البنزين.

ثم سألته وقلت: خلال قراءتك واطِّلاعك: ما هي حجةُ من يعتقد أنَّ الصانع والموجد هو الطبيعة؟

فتلكأ في الجواب وقال: ليس لهم حجة، وإنما هي من أوهامٍ، والْمُوجِدُ هو الله.

وأردت أنْ أبدأ معه من الصفر، وأنْ نبدأ بالأصل، فإذا فرغنا منه انطلقنا إلى الفروع، وهذا هو الأصل الذي إذا تمكن من قلبه وعقله، وأيقن بوجود الله حق اليقين، وأنه هو الخالق الرازق: انحلَّ أكثر ما يجده من إشكالاتٍ وشكوك، مع أنه يُظهر لي تسليمه بوجود الله، وتفرده بالملك والتدبير، وأنا لا أعتقد ذلك، فمن شكك في الدين والرسالة والغيب، هل يُؤمن بربٍّ أمر بها ودعا إليها؟؟.

فقلت: لكن هم لهم وجهةُ نظرٍ فلْنسمعها منهم قبل الحكم عليهم.

هم يقولون: إنَّنا لا نُؤمن إلا بما نراه ونحس به، والطبيعة هي التي نراها ونُعايشها.

فنقول لهم: هل الطبيعة خالقةٌ أم مخلوقة؟

فإن قالوا: مخلوقة؟

فنقول لهم: فمن خلقها؟

فإن قالوا: بل خالقةٌ ومُوجدة.

فنقول لهم: هل هي حسيَّةٌ أم معنويَّة؟

فإنْ قالوا: حسية.

فنقول لهم: أين هي لا نُحسُّها ولا نراها، وأين مكانها وصفاتها.

فإنْ قالوا: بل معنوية.

فنقول لهم: ألستم تقولون: لا نقرُّ ولا نُؤمن إلا بالمحسوس؟

ومع ذلك نقول لهم: هذه الطبيعة القادرة على الإيجاد والخلق، وأتْقَنت صنعها أيَّما إتقان، هل تملك صفاتٍ نعرفها بها من خلالها؟

فإنْ قالوا: لا.

قلنا: إذًا هذا عَدَمَ، وليس في الوجود مثل ذلك فتناقضتم.

فإن قالوا: بل لها صفات.

قلنا: إذًا في نهاية المطاف نقرُّ نحن وإياكم بمُوجدٍ عظيمٍ له الأسماء الحسنى والصفات العلى، لكنكم أنتم: سمَّيتم ذلك طبيعةً، وهذه الطبيعة لم تُقِمْ على الناس حجةً في وجودها من إرسالها للرسل الذين يُبينون للناس حقيقتها ووجودها، ولم تُنزل كتبًا تشرح لنا أهدافها وماهيَّتها.

وأما نحن: فإننا نُؤمن بربٍّ أرسل لنا الرسل وأنزل لنا الكتب، وأقام علينا الحجة، وبيَّن لنا المحجَّة، فأينا أحقُّ وأرجا بالنجاة؟.

وبعد هذا التقرير المفصل، الذي وافقني عليه أشدَّ الموافقة، قلت له: هذا الربُّ العظيم، الذي خلقنا، وخلق الكون كلَّه، هل يُمكن له أن يتركنا دون أن يبين لنا ما يريد؟ وماذا يجب علينا؟.

قال: لا، ولكن هذا يتعارض مع العقل، أليس هو الذي خلقنا، فما حاجته أنْ يُرسل إلينا رسلًا؟

فقلت له: أرأيت الطائرات التي صنعتها أمريكا، لو أنها أرسلتها لنا وقالت: يكفيكم ذلك، ولن أرسل لكم خبراء وفنيين يشرحون لكم كيفية التعامل معها، أهذا منطق؟

قال: لا.

قلت: فكذلك الله تعالى، خلقنا وأوجدنا، وأرسل لنا خبراء وهم الرسل، ليشرحوا لنا كيف نتعامل مع أنفسنا، وكيف نتعامل مع الكون الفسيح، وكيف نتعامل مع بعضنا، أليس هذا هو المنطق الذي تُؤمن به، وقررنا أنا وإياك أنْ نرجع إليه؟.

قال: بلى، ولقد اقتنعت تمامًا من كلامك، ولكنكم تقولون بأن الله تعالى كلما أرسل رسولًا أتى بشرعٍ جديد، ومحا الشرع السابق، فهذا إما أن يكون السابق خطأً، وإلا لِمَ لَمْ يكتف الله برسولٍ واحد؟، وأنا أؤمن أننا وجميع الشعوب لا بدّ أنْ نعيش بصداقةٍ وأخوة، وما تقررونه هو السبب في الصراع والبغضاء.

فقلت له: لقد عودتني بلطفك وتواضعك وإنصافك أنه إن لم يُقنعك شيءٌ صارحتني بخلافه، وإذا اقتنعت منه وافقتني عليه دون مُرواغةٍ، فأنا مُعجبٌ بهذه الصفة الجميلةٍ التي يندر وجودها عند الكثير من الناس، ففرح بكلامي وقال: وأنا على ذلك.

قلت: أتذكر أوَّل جوَّالٍ نزل؟

قال: نعم.

قلت: هب أنَّ مَنْ صنعه قال لنا: سأكتفي بمن أرسلت لكم من الخبراء والفنيين، والكتلوج الذي يشرح طريقةَ التعامل معه، وما سأصنعه من جوَّالاتٍ لاحقة، فسأحيلكم على الخبراء السابقين، والكتلوج الأول!، هل هذا منطق؟

قال: لا.

قلت: صدقت، فإن فعلوها فهذه أنانيةٌ وقلَّة عقل.

فكذلك الله تعالى، قد أرسل لنا أول رسولٍ وهو ما يُناسب القوم الذين بُعث فيهم، فلما مرَّت السنون تغير الزمان والناس، فناسب أن يُرسل لهم رسولًا يُناسبهم.

ما تقول بزواج الأخ من أخته؟

قال: لا يمكن.

قلت: أتعلم أنَّ أبناء آدم تزوجوا من أخواتهم؟ وذلك للضرورة، حيث لا يُمكن أن يتناسلوا إلا بهذه الطريقة، فهل من المنطق أنْ يستمر الوضع على ما هو عليه؟

قال: لا.

قلت: فلذلك أرسل الله رسلًا آخرين غيَّروا الأمور التي لا تُناسب زمانهم، وأبقوا على ما يتناسب مع كلِّ زمانٍ وهو العقيدة والتوحيد والأصول، فهي لا تختلف من نبيٍّ إلى آخر.

قال ﷺ: «**الأَنْبِيَاءُ أَوْلَاد عَلَّات، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**». متفق عليه.

وَأَوْلَاد الْعَلَّات: الْإِخْوَة مِنْ الْأَب وَأُمَّهَاتهمْ مُختلفة، فأَصْل دِينهمْ وَاحِد وَهُوَ التَّوْحِيد وَإِنْ اِخْتَلَفَتْ فُرُوع الشَّرَائِع.

قلت: هل توافقني؟

قال: نعم.

قلت له: انظر إلى طرف الجدار، فنظر إليه، قلت: أترى المسافة التي بين طرفيه؟ قال: نعم، قلت: أتعلم أننا قطعنا ثلثي المسافة في هذا الحوار والنقاش الجميل، وهي مما نتفق عليه جميعًا، فكيف يُقال: بأنك تُخالف وتشكك وتعترض وأنت توافق على أغلب ما عندي، فضحك ضَحِكَ الْمُعْجَبِ الْفَرِحِ.

قلت: أتأذن أنْ أخرج قليلًا وأتركك تأخذ قسطًا من الراحة؟

قال: نعم.

فخرجت والعرق يتصبَّب منه، ورأيت فيه القلق والتوتر، وأعتقد جازمًا أنها بسبب الصراع من داخل نفسه، فهو مقتنعٌ من أشياء يراها مُسلَّمات، وهاهي تُنقَض عروةً عروة.

فلمَّا أتيت رأيت عليه علامات الراحة والهدوء.

فرحبت به أشد ترحيب، وأثنيت على صبره وعقليَّته وثقافته وطلبه للحقّ.

فقلت له: الآن نحن قطعنا ثلثي الطريق، بقي القليل، ألسنا اتفقنا بوجود الله تعالى، وبإرساله للرسل، وتنوعهم بالرسالة، وأنهم جاؤوا لمصلحتنا؟.

قال: نعم.

قلت: بقي آخر رسولٍ ونبي، وهو محمَّدٌ ﷺ.

عندها بدأ النقاش الصعب والحاد، وهو الذي بدأني بالسؤال عنه، وهو مُنطلَقُ شكِّه، وهو الذي منه يُثير على الأساتذة وزملائه الأسئلة التي تُوحي بالشكوك، ويطلب أجوبةً لهذه التناقضات ـ بحسب رأيه ـ، ولكن هذا التسلسل هو الذي مهَّد الطريق لإقناعه، وتخيف شكوكه وأوهامه.

فأخذت أوراقًا وقلمًا، وبدأت أناقشه مستعينًا بها، فهي أدعى لفهمه واستيعابه.

قلت له: أتعرف ما هي أهمّ مُهمّات محمدٍ ﷺ؟

إنه جاء بمهمَّاتٍ من أعظمها وأهمِّها:

١ ـ تعريفنا بأنفسنا، وكيف نتعامل معها، ومع الآخرين.

٢ ـ تعريفنا بالكون، وكيف خُلق، وهو أمرٌ أعقد من سابقه، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

٣ ـ تعريفنا بما بعد الموت من الأمور الغيبية، وهو أمرٌ أعقد من الأمرين السابقين.

فلْنبدأ بالمهمَّة الأولى: ألا توافقني بأنَّ من أصعب الأمور التعامل مع نفسك؟ قال: بلى، قلت: معك حق، ولذلك أُنشئت جامعاتٌ وتخصصاتٌ لدراستها، ومعرفة كنهها، وكيفيَّة التعامل معها.

فنبيُّنا محمدٌ ﷺ أرسله الله إلينا لكي يُعلِّمَنا كيف نتعامل مع أنفسنا والآخرين، ولذلك شرع لنا الصلاة، وأنزل القرآن، وهما غذاء النفس والروح، علَّمنا الأخلاق والقيم، وعلَّمنا التسامح والرحمة.

انظر إلى كبار السن، تجد عندهم راحةً نفسيَّةً عجيبة.

هل وجدت أحدًا من كبار السن يجد قلقًا وتعاسةً في حياته وقلبه؟.

قال: لا.

قلت: لأنَّ نبينا ﷺ أعطاهم ما يشرح صدورهم من الإيمان بالقضاء والقدر، والرضا بالله، والتوجه إليه في السراء والضراء.

وأما الكون: فالله تعالى ذكر لنا في كتابه عن الكون، وعن سعة ملكه، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧]، والعلماء الفلكيون أثبتوا أن الكون لا يزال يتوسع كلَّ لحظة.

أخبرنا عن الشمس والقمر وبديع دورانهما، أخبرنا عن الجبال وكيفيَّة إرسائها.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠ ـ ٣٣].

فقلت: ألا توافقني على ذلك؟.

قال: لا!!

قلت: أشكرك على صراحتك، ولكن أخبرني لِمَ؟

قال: لقد أثبت الفلكيون أنَّ الكون جاء من عدم، وهو ما يُسمَّى في علم الكون الفيزيائي: الانفجار العظيم (بالإنجليزية: Big Bang).

فقلت في نفسي: ليتك وأمثالك ممَّن يمتلك عقلًا أنْ يُحسن التعامل معه، فهل هناك أحدٌ نشأ بين مسلمين يجعل من هذا إشكالًا!!.

فأجبته وقلت: إنَّ ما تذكره من نظرية الانفجار العظيم: قد رأيت فلمها قبل ثمان سنوات، يوم أنْ كُنْتَ أنتَ في المرحلة الابتدائية، ولخَّصْتُها في مذكرةٍ عندي، وهو ما جاء شرعنا العظيم الْمُطهَّر بتقريره.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، قال العلماء: أي متلاصقةً كتلةً واحدة، ففجرها الله، فأنشأ منها الكواكب والشمس والأرض.

فقلت له: هل توافقني الآن؟

قال: نعم، ولكن بقي إشكالان، **أحدها**: أنه ورد أنَّ الشمس لا تغيب حتى تسجد! فكيف يتوافق هذا مع ما يُثبته العلم الحديث ومع ما نراه بأعيننا؟

فقلت له: ما ذكرته هو قوله ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟ قال: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ. رواه البخاري.

ولا بدّ أنْ أبين لك المقصود من السجود، قال أهل العلم: سجودُ كلِّ شيءٍ بحسبه، وليس معنى السجود هنا: توافر الأعضاء والأطراف التي في بني آدم لتحقيق السجود بالنسبة للشمس، فمن معاني السجود في اللغة: الخضوع كما ذكره ابن منظور وغيره. وعليه يُحمل ما في هذا الحديث وهو المقصود في قوله تعالى في آية الحج:» ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعًا وكرهًا، وسجود كل شيء مما يختص به». اهـ كلامه.

فسجود الشمس والطير والدواب: خضوعها لله، وكونها تحت سيطرته وملكه وتدبيره.

وأما سجودها تحت العرش، فلا بدّ أنْ نعرف أنَّ الشمسَ لهَا سجدتان: سجودٌ عامٌ مستديمٌ وهو سجودها المذكور في آية النحل والحج مع سائر المخلوقات، وسجودٌ خاصٌ يتحقق عند محاذاتها لباطن العرش فتكون ساجدةً تحته، وهو المذكور في الحديث، وفي كلا الحالتين لا يلزم من سجودها أن يشابه سجود الآدميين، ولا أن تتوقف عن الحركة حال مُحاذاتها.

فقال لي: بهذا التفسير لا أجد عقلي يُخالفه أو يُنكره، ولكن لماذا لم نتعلم هذا الكلام من المعلمين الذين كنا نسألهم؟

قلت له: هل كانوا يقولون: بأن الشمس تسجد كسجود الآدميين؟

قال: لا، ولكنهم يقولون: نؤمن ونَكِلُ كيفيَّتَه إلى الله.

فقلت: المهم أني أخبرتك بالتفسير الصحيح، وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم.

قال: **والإشكال الثاني**: أنه ورد أن السموات سبعٌ ونحن لا نرى إلا سماءً واحدة؟.

فقلت: كما هو معلومٌ أنَّ علماء الفلك أجمعوا على أنَّهم لم يتمكنوا من الإحاطة بالكون ولا عشر معشاره، وما تعرفه من كثرة وعظمة المجرات كلها تحت محيط السماء الدنيا، فمن أين لك أنه لا يُوجد سماءٌ فوق سمائنا، وإذا كنا قد اتفقنا على أن الله حق، فما قاله حقٌّ أيضًا، فقد أخبرنا أن السماوات سبعٌ فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ ثم تأمل ما ذكره من الحكمة في خلقها بهذه الكثرة والعظمة: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

قلت: فهل اتفقنا الآن؟

قال: نعم.

قلت: بقي الأخير، وهو ما بعد الموت من الأمور الغيبية.

قال: نعم وهو أعْقد الأمور عندي، وأجد صعوبةً بالغةً في تصديق كثيرٍ منها.

قلت: الأمر بسيطٌ جدًا، لكن ما رأيك أنْ نضع قاعدةً نتفق عليها، ثم نبحر في هذه النقطة بعدها؟

قال: تفضل.

قلت ـ وأخرجت له الجوال وفتحت بطاريته ـ: ما رأيك لو دخلت على زملائك وهم مُحتدُّون في النقاش عن سبب اقتصارهم على هذه الأسلاك الأربعة، لِمَ لَمْ يجعلوها خمسةً!! ما رأيك هل سؤالهم في محلِّه؟

قال: طبعًا لا، وهو سؤالٌ سخيف.

قلت: لِمَ؟

قال: لأنهم لن يستفيدوا من الإجابة شيئًا.

قلت: إذن نتفق أنَّ أيَّ سؤالٍ لا نستفيد من الإجابة عليه فهو سؤالٌ خاطئ؟

قال: نعم.

قلت: وكذلك نزيد توضيحًا: أنهم سألوا سؤالًا ووجهوه إلى شخصٍ ليس هو من تخصصه، ولو سألوا مَن صنعه لكن السؤال وجيها نوعًا ما، أتوافقني؟.

قال: نعم.

قلت: بعد تقرير هذه القاعدة التي اتفقنا عليها، أعطني ما عندك.

قال لي: أجد صعوبةً في تصديق بعض الأمور الغيبية، كعذاب القبر، وضيقه واتّساعه، ونحن إذا حفرنا القبر لا نرى شيئًا!!.

قلت: أرأيت هذا الجوال، هل خطر على بالك يومًا ما أنْ تُفتش جزئيَّاته وتسأل عن تفاصيله؟

قال: لا.

قلت: فكذلك الأمور الغيبية، لِمَ تسأل عن جزئيَّاتها، وهي لم تأتك بعدُ؟

ولا تنس أنك قرَّرت بنفسك أنَّ أيَّ سؤالٍ لا نستفيد من الإجابة عليه فهو سؤالٌ خاطئ، فماذا تستفيد من إشغال نفسك وعقلك بأمورٍ لا تستفيد من البحث عنها، ولن تؤثر على مُجْريات حياتك، فأشْغل عقلك وفكرك بما ينفعك.

ثم هنا أمرٌ مهم: ألست وافقتني على أنك مؤمنٌ مصدِّقٌ بالله ورسوله؟

قال: بلى.

قلت: فيلزمك أنْ تُؤمن بجميع ما أخبر اللهُ ورسولُه.

والعقل نِطاقه ضيِّق، لا يستحمل أنْ يعي أمور الغيب كلها، أسرارها وتفاصيلها، فإذا جاء يوم القيامة، أعطى الله المؤمنين قوَّةً عقليةً وجسميةً يُدركون معها هذه الأمور.

ثم إن الله تعالى لا بدّ أنْ يميز المؤمن من عباده المحب لربه من الفاجر الكافر، فلذلك ألزمنا بالإيمان بالغيب ليتبين المؤمن المصدق من الكافر المكذب، وإلا لو أصبح الغيب علانية لم يكن لإيمان المؤمن ميزةٌ وفضيلة، حيث آمن وصدق بما رآه.

وأخيرًا أليس الله تعالى قد أقام لنا من الحجج والبراهين والآيات الظاهرة في أنفسنا وفي الكون حولنا؟.

تأمل قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

وتأمل قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

أليست هذه آياتٌ ظاهرةٌ كافيةٌ في تقرير وحدانية الله والتصديق بما جاء؟.

أليس من حقِّ الله تعالى أنْ يحجب عنَّا ويغيِّب عنَّا بعض الأمور ليبتلينا ويختبر الصادق منا؟

أرأيت لو أنَّ معلمًا أملى عليك الأسئلة، وجعل السؤال الأخير سؤالًا صعبًا دقيقًا ليُميِّز به الطالب المتفوق من الطالب العادي: أكنت تلومه على ذلك؟

قال: لا.

قلت: ولله المثل الأعلى، فهو سهَّل علينا طريق الإيمان به، فأنزل كتابًا بليغًا مُعجزًا، وأرسل لنا رسولًا ناصحًا أمينًا، أيحقُّ لك أنْ تعترض عليه حينما أخفى عنك أمورًا غيبيةً يبتليك ويختبرك بها؟.

ثمّ إني سأقررّ لك خمسَ قواعد:

القاعدة الأولى: أنَّ الله تعالى، الذي خلقنا وهو أعلم بنا، من حقِّه أنْ يُخفي عنا بعض الأمور لمصلحتنا، ويعدنا بمعرفتها بعد موتنا، ككيفية ضيق القبر واتِّساعه، وعذاب القبر ونعيمه، ألا توافقني بأنَّ هذا من حقِّه؟

قال: نعم.

القاعدة الثانية: أنه ﷻ ألزمنا بالإيمان بالغيب، ولم يُلْزمنا بالسؤال عنه، فلو أنَّ كبير السن مات دون أن يعرف تفاصيل ما بعد الموت، أيُعاقبه الله؟

قال: لا.

قلت: إذن توافقني على ذلك؟

قال: نعم.

القاعدة الثالثة: أنَّك إذا أتيت على أمرٍ تستغربه من أمور الدين والغيب، وصعب عليك اسْتيعابه: فتعامل معه بتسلسلٍ وتحليلٍ منطقيٍّ، فحينها يسهل عليك فهمه واسْتيعابه.

وسأعطيك مثالًا: هب أني وإياك رجعنا للوراء مائتي سنة، فقلت لك: سأريك الآن شيئًا في يدي يعرض لنا ما يحدث في الجهة المقابلة لنا من الأرض، وسأتحدث مع أناسٍ هناك، فهل ستصدق؟

قال: لا.

قلت: ولكن لو بدأت معك بالتسلسل والتحليل المنطقي، فقلت لك: بأنه بعد عشرين سنةً سيكتشف العالم نفطًا يصنعون منه طاقةً تولد كهرباء، ثم بعد ذلك سيخترعون جهازًا يُسمَّى الهاتف، تضعه على أذنك فتخاطب الآخرين عبر أسلاكٍ ممتدَّة، ثم بعد ذلك سيخترعون جهازًا يلتقط الصور الطبيعية، وينقل كل شيءٍ بشكلٍ مباشر، ثم تزداد الاختراعات، حتى يخترعوا جهازًا هاتفيًّا توجد به كمرةٌ تصور وتتحدث مع جميع الناس بأي مكان..

فهل مع هذا التسلسل المنطقي ستتقبل الكلام السابق؟

فأجاب: نعم.

قلت: وهكذا إذا أخذت ما تستبعده بهذه الطريقة فإنك ستراها سهلةً مقنعة.

وخذ مثالًا لما اسْتشكلته من القضاء والقدر: عندما تقول بأنَّ الله كتب عليّ كلّ شيءٍ، فمعناه أني مجبورٌ على عملي وعلى ما أرتكبه من المعاصي، وليس لي اختيار، فكيف يُعاقبني على شيءٍ كتبه عليّ؟!

وهذا الاستشكال قد وقع عند الكثير من الناس بسبب ما قلتُه من عدم أخذه على شكلِ تسلسلٍ منطقي.

فإليك التسلسل بكل سهولةٍ ووضوح: أليس الله تعالى الذي خلقنا وخلق كلَّ شيءٍ، والذي يعلم السر وأخفى: يعلم ما سوف نعمله من أعمالٍ صالحةٍ أو سيئة؟ بلى، فإذا كان يعلم ذلك: أليس الذي يعلم ما سيحدث في المستقبل قادرٌ على كتابة علمه؟ بلى، ولذلك يقول محمد بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: ما ينكر قومٌ أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلِمَ شيئًا فكتبه؟.

نعم! عَلِمَ ما سيكون فكتبه وأملاه في اللوح المحفوظ، وليس معنى كتب: أوجب وألزم، بل: أملى علمه، فإذا كان الله قادرًا على علم ما سيكون أليس قادرًا على كتابة علمه، فأيُّ علاقةٍ بين هذا وبين إجبارك على المعاصي والعمل؟.

علم أنك ستذهب إلى الرياض ثم ستشتري خمرًا، ثم ستدخل محلًا وستسرق، فكتب علمه ذلك في اللوح المحفوظ، فهل في هذا ما يُخالف العقل؟.

وخذ مثالًا لما اسْتشكلته من عذاب ونعيم القبر، وكيف يكون ونحن لا نرى أثرًا عليه؟: قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: والنائم يحصل له في منامه لذة وألم، وذلك يحصل للروح والبدن، حتى إنه يحصل له في

منامه من يضربه، فيصبح والوجع في بدنه، ويرى في منامه أنه أُطعم شيئًا طيبًا، فيصبح وطعمه في فمه وهذا موجود.

فإذا كان النائم يحصل لروحه وبدنه من النعيم والعذاب ما يحس به والذي إلى جنبه لا يحس به حتى قد يصيح النائم من شدة الألم، أو الفزع الذي يحصل له ويسمع اليقظان صياحه، وقد يتكلم إما بقرآن، وإما بذكر، وإما بجواب.

واليقظان يسمع ذلك وهو نائم، عينه مغمضة، ولو خوطب لم يسمع فكيف ينكر حال المقبور الذي أخبر الرسول ﷺ أنه يسمع قرع نعالهم، وقال: «**ما أنتم أسمع لما أقول منهم**».

ولا يجوز أن يقال: ذلك الذي يجده الميت من النعيم والعذاب، مثلما يجده النائم في منامه، بل ذلك النعيم والعذاب أكمل وأبلغ وأتم وهو نعيم حقيقي وعذاب حقيقي، ولكن يذكر هذا المثل لبيان إمكان ذلك. اهـ كلامه.

فهذا قياسٌ وتسلسلٌ منطقيٌّ مفيدٌ جدًا.

القاعدة الرابعةُ: أن تعلم أنَّ العقل ضعيفٌ لا يتحمَّل أنْ يستوعب شيئًا فوق قدراته، فلو رجعنا للمثال السابق، وهو أنه لو قيل لرجلٍ قبل مِائتي سنة: سنريك الآن شيئًا نضعه في أيدينا يعرض لنا ما يحدث في الجهة المقابلة لنا من الكرةِ الأرضيةِ، وسنتحدث مع أناسٍ هناك، فهل سَيُصدِّقُ ذلك؟ لا يمكن، وسيراه من المحال، ونحن نراه الآن من أبسط البَدَهيَّات، فإيَّاك أنْ تسمحَ لعقلك أنْ يتشرَّب كلَّ شيءٍ، فلقد رأينا من فعل ذلك أصابته أمراضٌ نفسية، ووساوس قاتلة، أدَّت بكثيرٍ منهم إلى الانتحار، إنها نهايةٌ طبيعيةٌ لمن أعرض عن دين الله وشرعه الذي هو المناسب لطبيعة البشر.

وخذ أمثلةً لمشاهير المثقفين الذي أنهوا حياتهم بالانتحار:

١ ـ إسماعيل أدهم: وهو كاتب مصري حصل على الدكتوراة في علوم الرياضيات من روسيا، صاحب كتاب: «لماذا أنا ملحد»، انتحر عام ١٩٤٠م.

٢ ـ تيسير سبول: وهو روائيٌّ أردنيٌّ، له رواية «أنت منذ اليوم» انتحر قبل بلوغه سنّ الأربعين.

٣ ـ أروى صالح: وهي كاتبةٌ مصريةٌ وناشطةٌ سياسيةٌ.

٤ ـ عنايات الزيات: وهي كاتبةٌ وناشطةٌ مصرية.

٥ ـ أرنست همنغواي: وهو الكاتب الروائيُّ الأميركي المشهور، فائز بجائزة نوبل العالمية، مات برصاصة من بندقيته أطلقها على نفسه.

٦ ـ دايل كارينجي: من أشهر الكتَّاب الأمريكيين، صاحب المؤلَّفات الرائعة في فن التعامل مع الناس وهي الأكثر مبيعًا في العالم، وتُرجمت كتُبه لأغلب اللغات، مثل كتاب: «كيف تكسب الأصدقاء» و«دع القلق ابدأ الحياة».

وغيرهم الكثير، وأنت لست أذكى ولا أكثر ثقافةً منهم.

وصدق الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

القاعدة الخامسةُ: أنَّ الله تعالى مع ذلك لم يمنعنا من الأسئلة عن أمورٍ غيبيةٍ كثيرة، بل شرحها ووضَّحها لنا، فإنْ جهلتها فاتهم عقلك، ولا تتهم ربك.

فهات ما عندك من إشكالاتٍ وأنا مستعدٌّ بعد طول هذه الجلسة بالإجابة عليها.

فقال: لم يعُدْ عندي شيءٌ، فقد أجبتَ عمَّا كان يجول في خاطري.

ثم نظرت إلى الساعة فإذا هي تجاوزت الثانية عشرة ظهرًا، فتعجبت من سرعة انقضاء الوقت.

وقلت له في النهاية: ألَسْنا متوافقين بكلِّ شيءٍ تقريبًا؟

قال: بلى.

قلت: فلم أُشيع عنك بأنك تُثِيرُ الشبهات والشكوك، فأنا لا أراك إلا مثل غيرك تمامًا، فأشكرك على أخلاقك وقيمك وإنصافك.

وأنصحك نصيحةً أخيرة: أنْ تعمل صيانةً دوريَّةً لعقلك وفكرك، وذلك بأنْ تجلس مع نفسك جلسةً صادقةً، وتنظر فيما وصلت إليه، وتتأمَّل في أفكارك ومعلوماتك، ومدى اسْتقرارك النفسي، فكما أنك تفحص وتعمل تحاليل لجسمك وعينك ومعدتك: بل كلُّ جهازٍ وهو جمادٌ تَعمل له صيانةً، كجوالك، وسيارتك، وحاسبك، فعقلك وفكرك من باب أولى، وهل هي رخيصةٌ ومُهمَلةٌ عندك إلى هذه الدرجة!.

ومن أعظم من يُعينك على ذلك: أنْ تستشير وتُصارح صديقًا مُخلصًا أمينًا، أو شيخًا أو أستاذًا واعيًا، فلا تحكم على نفسك بنفسك، ولكن انظر من هو أكبر وأعلم منك فخذ بنصحه ورأيه.

❊ ❊ ❊

وقد خرجت في نهاية حواري الطويل بنتائج من أهمِّها:

١ ـ أنه ينبغي لطلاب العلم والمشايخ أنْ يُبادروا إلى من عنده شبهةٌ وخطأٌ في علاج ما عندهم، وألا ينتظروا مجيئهم، فمجيئهم ومبادرتهم لصاحب الشبهة وحواره معه بجوٍّ لطيفٍ: سيؤثر عليه أشدّ

التأثير، وسيلمس من المشايخ الذين يكرههم أو ينتقدهم الرحمة والمحبة والقرب، وكذلك سيزول عنه من الشبه الشيء الكثير.

ولْنأخذ مثالين من سيرة إمامنا وقدوتنا ﷺ:

المثال الأول: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَتِه، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ رأوها قليلةً، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**». متفق عليه.

تأمل: (فَجَاءَ إِلَيْهِمْ رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: **أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ**): فيه دليلٌ صريحٌ على اسْتحباب مجيء العالم والداعية بنفسه للنصح والتوجيه، وأنه لا ينتظر مجيء الْمُخطئين، بل يُبادر إليهم، ويوضح خطأهم، ولا يكتفي بإنكار المنكر والخطأ علانية، بل يتَّصل على من فعل ذلك، أو يذهب إليه ويُناقشه.

والمثال الثاني: قال عَبْدُ اللهِ بْن عَمْرٍو رضي الله عنهما: ذُكِرَ للنبيّ ﷺ صَوْمِي، فَدَخَلَ عَلَيَّ، فَأَلْقَيْتُ لَهُ وِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، فَجَلَسَ عَلَى الأَرْضِ، وَصَارَتِ الوِسَادَةُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ. ثم بدأ يُناقشه ويُحاوره ويُقنعه بعدوله عن رأيه. متفق عليه.

فما إنْ ذُكر له ﷺ خطأ عبد الله حتَّى بادر إليه، وتكلَّف المجيءِ بنفسه الشريفة إلى بيته، ولم يطلب من أبيه أنْ يُحضر ولده، مع أنَّ

الحاجة له ولولده، فقد ورد أنه هو الذي شكا ولده بسبب تقصيره في حقّ امرأته لشغله بالعبادة.

٢ ـ أن الكثير من أصحاب الشبهات، أو ما يُقال عنهم علمانيين، أو ملحدين ـ مع ندرتهم في بلادنا ولله الحمد ـ: شبهاتهم ليست معقدةً صعبة، وليست هي ممَّا يصعب حلُّها وعلاجها، ولكنهم لم يجدوا أحدًا يكون قريبًا منهم، ويأخذ شبهاتهم واحدةً واحدة، فيُناقشها بحكمةٍ ورويَّة.

٣ ـ أنَّ بعض من يُخالفنا قد لا يختلفون معنا في الجوهر والأصل، وإنما لعدم جلوسنا مع بعض، واسْتِماعنا إلى أطروحاتهم، وإيرادهم لشبهاتهم: اعتقدنا أنَّهم يختلفون معنا اختلافًا جذريًا، فصاحبي هذا قلت له في النهاية: أنا لا أراك تختلف معي بشيءٍ واحدٍ، وذلك بعد أن سمعت منه، وشرحت له المعنى الصحيح لما يستشكله.

وأذكر قبل سنواتٍ أنّ أحد الأقارب كان كلَّما جلسنا جلسةً أسبوعية يطرح هو أو غيره بعض الأمور المشكلة، كالدشوش وأنها ليست حرامًا، وعن رجال الهيئات وأخطائهم، وعن تنظيم القاعدة وكفرهم، وكنا نحتدم في النقاش، وترتفع الأصوات، فنخرج من الجلسة العائلية وقلوبنا متنافرة.

فقلت لهم يومًا ما: إلى متى ونحن على هذه الحال، نقاشٌ ممل، ونفرةٌ وفرقة، فدعونا نتحاور، وأنا سأرتب الحوار، سأسأل أسئلةً عما سبق طرحه من الإشكالات: هل يُخالف أحدٌ أن الدشوش التي فيها المسلسلات الهابطة، والأفلام الخليعة: محرمة، قالوا: لا، قلت: هل يُخالف أحدٌ أنها إن كانت خاليةً منها فهي جائزة. قالوا: لا.

قلت: هذه النقطة لم نختلف عليها ونحن دائمًا نتناقش عنها ونختلف عليها، بسبب عدمِ فهمِ بعضِنا مُرادَ بعض.

وهكذا أخذت النقاط التي كنا نختلف عليها واحدةً واحدة، بهدوءٍ وتنظيم، فخرجنا متفقين، ولم نتناقش عنها بعدها أبدًا.

تمت عصر يوم الاثنين ٣/ ٧/ ١٤٣٤هـ، ولقد دوَّنت ما دار من الحوار في نفس اليوم حتى لا أنسى شيئًا مما دار فيه، ولا أزيد شيئًا ليس فيه ـ إلا بعض الشواهد اليسيرة ـ ولقد زوَّدت صاحبي بهذه النسخة من الغد، فقلت له: تأملها فقد كتبتها لأجلك.

القصةُ الثانية

قصتي مع مُلحدة: حوار ونقاشٌ قاد فتاةً من الإلحاد إلى الإيمان، مع ذكر حياتها قبل وبعد الإلحاد

جاءتني مساء الاثنين، الثاني عشر من شهر رمضان، من عام ألف وأربع مائةٍ وستةٍ وثلاثين للهجرة هذه الرسالة:

السلام عليكم، يا شيخ هل أنت تُناقش الأفكار المتشككه؟!

فأجبت: عليكم السلام،، لست متخصصًا بذلك. ولكن إذا دعت الحاجة ناقشتها. حمانا الله وإياكم من الشك والريب، ورزقنا اليقين ففيه العيش والنعيم.

قالت: لأنني قرأت لك قصةً مع طالب بعنوان: قصتي مع المشكك في الدين؟ فهل القصة صحيحة؟

قلت: نعم.

قالت: انظر إلى هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، الله هداني للإسلام فلماذا أضلّني وسلب مني نعمة الإسلام، بالرغم إني أحب هذه النعمة، ولستُ متكبرة، يعني الله خذلني!!، لماذا؟

فقلت: تسمحين أنْ يكون النقاش بالهاتف؟

قالت: أليس عندكم أنتم أيها المشايخ أنه لا يجوز أن تكلموا النساء؟ وصوت المرأة عورة عندكم؟

حتى حينما نمر عليهم في الصلاة يقولون نجسة؛ لأنها قطعت صلاتهم!

قلت: صوت المرأة ليس بعورة، ولا حرج في حديثها للرجل عند الحاجة، وجميعُ إشكالاتك سجليها في ورقة وناقشيني عليها..

هكذا بدأت هذه الفتاةُ المتحيرة رسالتها، وكان واضحًا عليها التوتر والهجوم والحدّة.

وعندما جاء الموعد، جرى الاتصال، **قلت لها**: لقد بدا واضحًا عليك التوتر والهجوم والحدّة، وهكذا لمست ورأيت الذين يعيشون في حيرةٍ وقلقٍ يتصرفون كذلك؛ لأنهم يرون المجتمع مُناقضًا لهم، ويحسبون أنهم هم الأذكياء، حيث لا يُمررون كل شيءٍ دون تفكير وفهم، وأما بقية الناس فهم لا يُبالون بالعقل، ويأخذون عقيدتهم عن طريق التوارث.

قالت: صدقت، هكذا كان ولا زال شعوري، ولقد ناقشت قبلك ما يُقارب عشرةً من المشايخ، فلم أجد الإجابة المقنعة عما يدور في خَلَدي، ولا أراهم يفهمون ما أقصد.

قلت: أتمنى أن تجدي عندي ما يُزيل الشك والريب من قلبك.

ولْنبدأ النقاش من الآية التي أشكلت عليك.

معنى الآية ليس هو حسب ما فهمتيه، ولكن معناها: أن الله تعالى بعدله لا يُضل أحدًا ضلالًا يُؤدّيه إلى إدخاله نار جهنم، إلا بعد أنْ يُقيم الحجة عليه.

وأما قولك: «الله هداني للإسلام فلماذا أضلّني وسلب مني نعمة الإسلام»! فاعلمي أنّ من اهتدى هدايةً صحيحة، وامتلأ قلبُه بالإيمان بقناعةٍ ويقين، لا يُمكن أنْ يتركه وينتكس، بل من انتكس فهو لم يهتد الهداية الصحيحة، بل استقام ظاهره فقط، مع صلاحٍ يسير في باطنه.

قالت: كلامك مقنع، ولكن الذي أوجد الشك في قلبي هو الاختلاف في الأحاديث، فمرةً يُصححون حديثًا، ومرةً يُضعفونه! ولو كان محفوظًا لما اضطربوا في ذلك؟

قلت: لفهم هذه الْجُزئية لا بدّ من فهم كيف وصلنا القرآن الكريم.

حينما أوحى الله تعالى إلى نبينا ﷺ القرآن الكريم، حفظه هو والكثير من أصحابِه في صدورهم، فلما تُوفي قام خليفتُه من بعده أبو بكر رضي الله عنه فجمعه من صدور الصحابة، وحفظه في كتاب، وهو المحفوظ إلى يومنا هذا.

ثم جعل الصحابة يُدَرِّسُونه ويُقرئونه لطلابهم، والطلاب أقرؤوه لطلابهم، وهكذا إلى وقتنا الحاضر، فالقرآن نتلقاه نحن بالتواتر والسند، فأيّ حفظ له أعظم من هذا؟ وصدق الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

بل «كانت هناك مدارس متعددة في تفسير القرآن وتعليمه، لكل مدرسة خصائصها، ومميزاتها وأساتذتها، وطلابها، فكانت هناك مدرسة الحجاز، وهي تشمل مدرستين:

مدرسة مكة، وأستاذها الأكبر ابن عباس، ومدرسة المدينة، ومن أساتذتها: علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب.

ومدرسة العراق، وأستاذها الأكبر: ابن مسعود.

ومدرسة الشام، ومن أساتذتها من الصحابة: أبو الدراء الأنصاري الخزرجي، وتميم الداري راهب عصره، وعابد أهل فلسطين.

ومدرسة مصر وأستاذها الأكبر: عبد الله بن عمرو بن العاص.

ومدرسة اليمن وأستاذاها الأكبران: معاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري، إلى غير ذلك من المدارس التي انتشرت في العالم الإسلامي»[(١)].

فهذا القرآنُ الذي بين أيدينا، قد حَفِظَه الأجيال جيلًا بعد جيل، بل وكلُّ عالمٍ في القراءات له سندٌ متصلٌ إلى النبي ﷺ، أخذ القرآن مُشافهةً من شيخه، وشيخُه أخذه من شيخه، وهكذا إلى أنْ يَصِلَ إلى النبيِّ ﷺ.

وأما بالنسبة لكيفيّة كتابة الأحاديث وكيف وصلتنا، فبيان ذلك بما يلي:

لقد بعث الله تعالى نبينا محمدًا ﷺ ليُعلم الناس ويُبلغهم مُراد الله تعالى، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة كما أمره ربُّه، فلمّا تُوفي قام أصحابُه من بعده بتعليم الناس الذي لم يُشاهدوه ويصحبوه، وهم الْمُسمّون بالتابعين، فأنشأ كلّ صحابيّ حلقةً في مسجد في كل بلد، في الكوفة والبصرة والمدينة ومكة وغيرها ليُدرسوا الناس ما سمعوه وشاهدوه من رسولهم وحبيبهم ﷺ.

وكان يحضر آلاف الطلاب عندهم، وكانوا يمتلكون حافظةً عجيبة، وذكاءً وقّادًا، فلمّا تُوفي الصحابةُ أو أكثرهم قاموا بتبليغ سنة الرسول للناس، فأنشؤوا الحلق الكثيرة في شتى أصقاع الأرض، فانتشرت سنة الرسول وكلامُه وسيرتُه انتشارًا عظيمًا، وقام أحد التابعين بتدوين سيرته وسيرة أصحابِه، وهو مُحَمَّدُ بنُ إِسْحَاقَ بنِ يَسَارٍ وُلد سَنَةَ ثَمَانِيْنَ، وتُوفي عام (١٥١هـ).

(١) «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» للدكتور محمد بن محمد أبو شهبة رَحِمَهُ اللَّهُ (ص٧٢).

قال عنه الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ دَوَّنَ العِلْمَ بِالمَدِيْنَةِ، وَذَلِكَ قَبْلَ مَالِكٍ وَذَوِيْهِ، وَكَانَ فِي العِلْمِ بَحْرًا عَجَّاجًا. اهـ.

فسيرةُ نبينا محفوظةٌ منذ عهد التابعين.

ولم يكتف جيل التابعين وتابعيهم بهذا، بل ألفوا كتبًا خاصَّةً في السنة القولية والفعليّة، ومن أوائل من انبرى لهذا الأمر: الإِمَامُ مَالِكُ بنُ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ المَدَنِيُّ، قال عنه الذهبي رحمه الله تعالى: هُوَ شَيْخُ الإِسْلَامِ، حُجَّةُ الأُمَّةِ، إِمَامُ دَارِ الهِجْرَةِ، مَوْلِدُ مَالِكٍ عَلَى الأَصَحِّ: فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِيْنَ، عَامَ مَوْتِ أَنَسٍ خَادِمِ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ. اهـ.

وقد تلقى الأحاديث عن كبار التابعين، فدون ما تلقاه في كتابه الْموطأ، وهو موجودٌ ومطبوع.

فبذلك ازداد حِفظ السنة النبويّة في عهد تابعي التابعين، وهو عهدٌ قريبٌ جدًّا من عهد النبوّة.

ثم بعد ذلك جاء الكثير من العلماءِ فدّونوا الأحاديث، ولكن لم يشترطوا فيها أن تكون صحيحةً، بل وضعوا في مُصنّفاتهم ما حدّثهم به شُيُوخهم.

فجاء الإمام البخاريّ ومسلم، وهما من أكبر علماء الحديث في زمنهم، فألف كلّ واحدٍ منهما كتابًا اشترط فيه الصحة، وأن كل حديث يرويه في كتابه فهو صحيح.

وقد اشترطوا للحديث الصحيح شروطًا قويّةً عجيبة، فقالوا في تعريف الحديث الصحيح: هو الحديث الذي يرويه العدل التام الضبط، بسند متصل، ولا يكون شاذًا ولا معلَّلًا.

ومن هذا التعريف يمكن إجمال شروط الحديث الصحيح بما يلي:

الأول: عدالة جميع رواته، وذلك بأن يكون مشهودًا لهم بالاستقامة في السيرة والدين، التي تمنع صاحبها من اقتراف الكبائر والإصرار على الصغائر.

الثاني: تمام ضبط رواته لما يروون، وذلك بأنْ يكونوا حفَّاظًا مُتقنين.

الثالث: اتصال السند من أوَّله إلى منتهاه، بحيث يكون كل راوٍ قد سمع الحديث ممن فوقه.

وهو سماع كل راو من الراوي الذي يليه بإحدى الصيغ الصريحة، كـ (سمعت) أو (حدثنا) أو (أخبرنا) أو (عن) من غير مدلِّس.

وأما إذا كان الراوي مُدلّسًا فلا يقبلونه.

والمدلِّس: هو الذي أخفى عيبًا في إسناده، لكي يصير ظاهره مقبولًا.

وهذا من دقة أهل الحديث وتشدّدهم في قبول أحاديث الشيوخ.

مثال التدليس: أنَّ سفيان بن عيينة وهو أحد الرواة، حدّث مرّةً فقال: عن الزهري قال: . . ثم أكمل الحديث.

فقال له أحد طلابه الحريصون على صحة السند: سمعته أنتَ من الزهري؟ فقال: لا، حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري.

فانظر كيف أسقط راوِيَيْنِ مِنْ إسنادِه، وهذان الراويان ثقتان، ولكنّ المصيبة حينما يكون الذين أسقطهم أحدَ الضعفاء، فلأجل هذا حرص المحدّثون على معرفة جميع تفاصيلِ رجال الإسناد.

ولو قال الشيخ والعالم كالإمام الشافعي ومالك وغيرهما: حدّثني ثقةٌ، أو من أثق به، أو من لا أتهم، لم يُقبل أهل الحديث منه ذلك، ولم يُصححوا حديثه، إلا إذا صرّح بمن حدّثه، وتأكدوا من عدالته

وضبطه وإتقانِه! مع أنّ من حدّثهم هم صالحو التابعين أو تابعيهم! فأي دقّةٍ للأحاديث أعظم من هذا؟

ولو أن أحدَنا قال: حدثني من أثق به عن فلان كذا، وذكر قصة، ثم علم أن أحدًا ممن سمعه سُئِل عن القصة التي ذكرها ورواها، فقال: لم تثبت، لغضب وأخذ بخاطره.

والْمُحدّثون يردون مئات الأحاديث التي رواها علماء ثقات كالشافعي ومالك وأبي حنيفة وسفيان، إذا حدثون عن ثقة عندهم، ولم يصرحوا باسمه.

وخذ مثالًا لذلك: قال الشافعي في مُسْنِده (٧٣٥): أخبرني من أثق به من أهل المدينة، عن ابن شهاب الزّهريّ، عن سعيد بن المسيب: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.. ثم ذكر الأثر.

فهل يقبل المحدثون هذا الأثر؟ مع أنّ كلّ من الإسناد ثقاتٌ معروفون؟ لا؛ لأن فيه رجلًا مُبْهمًا، مع أنّ الشافعيّ وثّقه.

فهل يستريب أحدٌ بصحة الأحاديث التي وصلتنا وصححها المحدثون؟ وخاصَّةً من اشْترط الصحة في كتابه، كالبخاري ومسلم؟

الرابع: سلامة الحديث من الشذوذ في سنده ومتنه، ومعنى الشذوذ: أن يخالف الراوي من هو أرجح منه.

الخامس: سلامة الحديث من العلة في سنده ومتنه، والعلة: سبب خفي يقدح في صحة الحديث، يطّلع عليه الأئمة المتقنون.

فهكذا وضع هذان الإمامان وغيرُهما هذه الشروط لقبول الأحاديث، وهو يتطلب منهم جُهدًا كبيرًا في ذلك، وقد أفنوا أعمارهم في ذلك.

وقد اتفق العلماء على قبول كتابيهما، وأنهما صحيحان، بل هما أصح الكتب بعد القرآن الكريم.

فبذلك حفظ الله تعالى لنا كتابه وسنة رسوله حفظًا دقيقًا.

وما ترينه من اختلاف العلماء في بعض الأحاديث تصحيحًا وتضعيفًا فهي أحاديث وردت في غير الصحيحين.

وبهذا يزول الإشكال الذي ذكرتيه وهو سبب الاختلاف في الأحاديث، فمرةً يُصححون حديثًا، ومرةً يُضعفونه! ولو كان محفوظًا لما اضطربوا في ذلك؟

قالت الفتاة: كلامك مُقنعٌ، وقد زال الإشكال الذي كان يُراودني لسنواتٍ عدّة.

قلت: إنّ هذا الدين عظيمٌ، ومن عظمته أنّ كثيرًا من أعدائه دخل فيه بعد أن حاربه! فيا سبحان الله! يُحاربه ويستميت في كراهيته وتنفير الناس منه، ثم ما يلبث أنْ يدخل فيه بعد أن قرأ عنه، ورآه مُوافقًا للعقل والفطرة.

وقد أقبل الكمُّ الهائلُ من عقلاء الغرب والشرق، الْمُتَخَصِّصُون في الأديان والعقائد المعادية للإسلام، الْمُحاربون له بكلِّ ما أُوتوا من قوَّة، ما كان منهم إلا أنْ انقادوا لهذا الدين لَمَّا عرفوا حقيقته، ووقفوا على جماله وعظمته، فشهدوا بصدقه وصحته، بل وأشهروا إسلامهم أمام الملأ، مع أنهم يعلمون أنهم سيتركون مناصبهمُ الكبيرة، التي تُدرّ عليهمُ الأموال والمكانة والسمعة.

ومن هؤلاء المليونيرُ والمحامي الأمريكي: مارك شيفر، الذي أشهر إسلامه في المملكة أثناء رحلةٍ سياحية، ومَّما قاله: أشعر أني ولدت من جديد، وأن حياتي قد بدأت!.

لم يجدِ الحياةَ السعيدةَ في ظلِّ ثروته الهائلة، لكنه وجدها في هذا الدين العظيم.

ومن أشهر هؤلاء: نائب رئيس الحزب الهولندي الحاكم السابق، وأكثر الأحزاب اليمينية تطرفًا وتشددًا ضد الإسلام والمسلمين، أرناود فاندورن، وقد كان يروج لأكثر الأفلام إساءة لدين الله «فيلم الفتنة»، وقوبل بحفاوة بالغة من الأوساط اليمينية المتطرفة والصهيونية والكنسية، ووزع على أوسع نطاق ممكن، وقوبل باحتجاجات كبيرة في العواصم العربية والإسلامية، وبينما كان يفكر منتجو «الفتنة» في إصدار فيلم ثاني أكثر إساءة للإسلام، إذا بأرناود فاندورن» يعلن إسلامه، ويشهد الشهادتين، بعد أن درس الإسلام بغرض الإساءة إليه فصار من أبنائه.

فلك أن تتعجبي من هذا الرجل، الذي يسكن في بلد من أغنى بلدان العالم، وله مكانةٌ مرموقةٌ في قومه وحزبه، وهو من أعقل وأذكى الناس، ويكفي أنه نائب حزبه، وأهم الشخصيَّات القائمة على إنتاج الفلم، فما الذي دعاه أنْ يترك دينه النصراني، ويتخلى عن مكانته المرموقة، التي يعلم أنه سيخسرها إذا أشهر إسلامه؟

إنها القناعة التي وجدها في دين الإسلام، حيث قرأ الكثير عنه لغرض الرد عليه، فانبهر من تعاليمه، وتعجّب من قِيَمه، وكيف أنه مُوافقٌ للعقل والفطرة.

إنّ الضعيفَ حين يتبعُ القويّ فليس بغريب، ولكنَّ الغريبَ حين يتبعُ القويُّ الضعيفَ، وهذا لا يُمكن إلا إذا كان مع الضعيفِ سرٌّ جذب القوي إليه، والسرّ هو في تعاليم إسْلامِنَا، ومُلاءمتِه للعقل والفطرة، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام.

قالت: هذا الكلام مُؤثرٌ جدًّا، وإسلام أمثال هؤلاء يدل على أنهم وجدوا في الإسلام الشيء الكثير.

وإني مقتنعةٌ تمامًا مِمَّا ذكرت، **ولكنّ الذي لا أجد له جوابًا**: أني كلّما اقتربت من الله تعالى ودعوتُه لا أجده يستجيب لي، ولا أجد سعادةً ولا راحة بعد القرب منه، فلذا أجدني ناقمةً!

قلت: السبب في ذلك أنك تدعينه تعالى تجربةً أو لمصلحة، وهذا لا يليق بك فعله مع البشر، فكيف برب البشر.

لو أنّ أحد زميلاتك لا تعرفك إلا عند الحاجة، وإذا قضيت حاجتها نسيتك، ألا تزدرينها، وترينها صديقةً للمصلحة لا للمودة والمحبة؟

قالت: بلى.

قلت: فللَّه المثل الأعلى، فالله يعلم منك أنك ما تقربت منه إلا لحاجةٍ ومصلحة، وإذا لم يُلب لك ما أردت حنقت وغضبت، فهو لا يرضى بهذا، بل هو غنيٌّ عنك وعنا جميعًا، قال تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزمر: ٧].

فالله إذا علم أنك ما دعوتيه إلا حبًّا له، سواءٌ أجاب دعوتك أم لا، رضي بذلك، وملأ قلبك سعادةً وراحةً، ورضى وطمأنينة، وما أقرب إجابته لك إذا كان هذا حالك.

وما أجمل أنْ ترجعي باللوم إلى نفسك عندما لا يُستجاب دعاؤُك، وأنها هي السبب في ذلك، قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: «إنَّ المؤمن إذا استبطأ الفرج، وأيس منه بعدَ كثرة دعائه وتضرُّعه، ولم يظهر عليه أثرُ الإجابة يرجع إلى نفسه باللائمة، وقال لها: إنَّما أُتيتُ من قِبَلِكَ، ولو كان فيك خيرٌ لأُجِبْتُ، وهذا اللومُ أحبُّ إلى الله من كثيرٍ من

الطَّاعاتِ، فإنَّه يُوجبُ انكسار العبد لمولاه واعترافه له بأنَّه أهلٌ لما نزل به من البلاء، وأنَّه ليس بأهلٍ لإجابة الدعاء، فلذلك تُسرِعُ إليه حينئذٍ إجابةُ الدعاء وتفريجُ الكرب، فإنَّه تعالى عندَ المنكسرةِ قلوبهم من أجله». اهـ[1].

وفي الختام: اعلمي أنَّ الحياة لا تُطاق بدون الراحةِ النفسية، والراحةُ النفسيّة لا تُوجد إلا في الدين، فهو مصدر السعادة والراحة، وبقدر ما تبتعدين عنه تنقص الراحة، وتتقلّص السعادة والطمأنينة.

وصدق الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

وفي نهاية الحوار مع الفتاة اقتنعت والحمد لله تعالى..

ونصحتُها بأنْ تقرأ القرآن بتأمل وتدبّر في هذا الشهر العظيم وأنْ تُصلي بخشوع وطُمأنينة، وأنْ تُلحّ على الله بالدعاء الصادق بأنْ يُثبتها.

ثم جاءتني هذه الرسالة بعد يومين تقول: (يا شيخ، الحمد لله آمنت، واتخذت القرار: يا كفر يا إيمان، اخترت الراحة النفسيه لي ولِصِحَّتِيْ، الذي هو الإيمان والإسلام.

من الآن بإذن الله سأُخرج أفكار السموم من دماغي؛ لأن فيَّ كالوسواس من سنتين عن العقيدة، ولابدّ أنْ أُبَيِّن لله تعالى أني جالسةٌ أُجاهد في إخراجه من دماغي، وأنا قادرةٌ بإذن لله؛ لأني لا أُريد إلا الله، لا أُريد أنْ أموت على الكفر، أُريد أنْ أُقابل الناس الذين أحببتهم في الجنة، أُريد رُؤيَةَ الله تعالى، لا أُريد أنْ أحرم نفسي رؤيته لأجل أفكار إبليسية.

(١) «الجامع المنتخب» (ص٢١٢ ـ ٢١٣).

الله لا يحرمنا من لذة وجه الكريم).

بهذه الكلمات أعلنت ترك الشك والريب والانتكاسة والحمد لله.

فأجبتُها: هنيئًا لك اختيار الطريق الصحيح، وأبشري بالسعادة واللذة.

ثم جاءتني هذه الرسالة منها تقول: يا شيخ، كيف أثبت على الإيمان؟ لا أُريد الرجوع إلى الكفر والضلال.

فأجبتها بهذا الجواب:

إن مما يؤسف له ويندى له الجبين، انتكاس بعض المستقيمين، الذين ذاقوا حلاوة الإيمان، والسعادة والاطمئنان.

فلا إلٰه إلا الله، ما أعظمها من مصيبة، وما أشدها من طامة، أحدهم كان يحفظ القرآن ويحافظ على الصلوات، قلبه ليِّن، ودمعته سريعة، وفجأة ينتكس على عقبيه، باع دينه بدنياه.

ما أعظم ندامة المنتكسين يوم القيامة، وخاصة يوم الصّدود عن الحوض! وما هو هذا اليوم؟ اسمع الإجابة من نبيّك ﷺ حيث يقول: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، أي متقدمكم وسابقكم إليه، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي الْحَوْضَ حَتَّى عَرَفْتُهُمُ اخْتُلِجُوا دُونِي، وفي رواية: فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ـ أي إلى النار ـ فَأَقُولُ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي**». رواه البخاري ومسلم.

فما أشدها من لحظة، وما أعظمها من خسارة، يوم أن ترد على رسول الله الحوض، حوض طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وعدد كيزانه كنجوم السماء، وأعظم من ذلك، هو انتظار رسول الله ﷺ لك، وفرحه بك، يا لها من لحظة عظيمة،

وسعادة لا توازيها سعادة، يوم أن ترى رسول الله ﷺ في جماله وبهائه ونوره، فتقدم عليه، وكلُّك أنسٌ وسعادة وشوق إلى لقائه، ثم تفاجأ بملائكة غلاظ شداد، يمنعونك من الوصل إلى رسولك وحبيبك محمد ﷺ، فينادي عليك حُبًّا فيك، وشوقًا إلى لقائك، ولكن يأتي الجواب: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فقد انقادوا لوساوس الشيطان، وأعرضوا عن طاعة الرحمن!

وأما أسباب الثبات على الهداية والاستقامة، فأُلخّصها بخمسة أسباب كفيلةٍ بثباتك ـ بإذن الله تعالى ـ: **فأول سببٍ وأعظمُه**: الدعاء الصادق بالثبات على الدين، فإذا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»! فغيرُه أحوج بالإكثار من هذا الدعاء.

والله ﷻ أخبر عن عباده المؤمنين أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

يدعون الله ﷻ أن يثبتهم، وألا يزيغ قلوبهم بعد أن هداها الله.

وإذا كان إبراهيم التوحيد، إبراهيمُ رسولُ الله، ونبيه وخليله عليه الصلاةُ والسلام يدعو الله بهذا الدعاء ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥] خاف على نفسه وأبنائه من الشرك والردّة عليه السلام، فنحن أحوجُ أن ندعوَ الله أن يجنبنا الشرك والردة والانتكاسة.

فاللَّهُمَّ ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

فما أحوجني وإياك أنْ ندعو الله صباح مساء ألا يزيغ قلوبنا، وأن يثبتنا على دينه، فها هو إبليس اللعين والشيطان الرجيم، قد أخذ العهد وعقد العزم على إغوائنا وإضلالنا ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢] يقسم بعزة الله أن يغوينا ويضلنا كلنا، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ

﴿مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [صٓ: ٨٣]، فهؤلاء لا يستطيع إغواءَهم ولا إضلالهم؛ لأن الله تعالى حاميهم وحافظهم، ثم رد الله عليه بجواب عظيم فقال: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [صٓ: ٨٤، ٨٥].

فيا له من تهديد أكيد، ووعيد شديد، لمن سار في ركب الشيطان، وأعرض عن سبيل الرحمن.

السبب الثاني: البعدُ عن مواقع الفتن والشهوات، قال بعض السلف: مَن أعطى أسباب الفتنة من نفسه أولًا: لم ينج أخيرًا وإن كان جاهلًا[(١)].

نعم، مَن قلَّب مواقع الشبكةِ العنكبوتية، ومقاطع الفيديو وغيرها، ليتسلى ويبحث عن الغرائب والعجائب، فلا بد أن تظهر له صورٌ فاتنة، ومقاطعُ فاضحة، وشبهاتٌ مُضلّلةٌ، ومع الأيام يعتادُ على ذلك، ويستمرئُ هذا الشيء، ويُصاب بالفتنة وهو لا يشعر، فيصعب عليه التخلص من هذه الفتن، والشهواتِ والشبهات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فما اسْتُعين على التخلص من الشر، بمثل البعد عن أسبابه ومظانه[(٢)].اهـ.

السبب الثالث: صدق النيّة في طلب الهداية والاستقامة، فالذي انتكس إنما انتكس لِأَنَّ نيَّتَه في الالتزام لم تكن صادقة وخالصة لله.

فعندما نسأل من لا يصلي: لماذا لا تصلي؟ نحتاج أيضًا أن نوجه السؤال لمن يصلي: وأنت لماذا تصلي؟

نعم لماذا تصلي؟! وأنت يا من أعفيت لحيتك لماذا أعفيتها؟

---

(١) «ذم الهوى» (ص١٤٤).

(٢) «عدة الصابرين» (ص٨٦).

وأنت يا من قصرت ثوبك: لماذا قصرت ثوبك؟! لماذا تركت أشرطة الأغاني وأقبلت على سماع القرآن؟! لماذا خلا بيتك من الدش؟ لماذا أيتها الأخت الكريمة لبست الحجاب والغطاء؟

فالجواب عند الكثير من الناس: هو أني فعلتُ ذلك عادةً لا عبادة.

فهو إنما يصلي لأنه نشأ في بيتٍ يُحافظ أهلها على الصلاة فصلى معهم، فهو لم يستحضر عظمة الصلاة، ولا عظمة الوقوف بين يدي الله، فلم يجد لذةَ وحلاوةَ الصلاة، فهو يذهب للصلاة باليوم خمس مرات، لكن لا أثر لها في حياته أبدًا.

فلانٌ من الناس أعفى لحيته؛ لأن من حوله يُعفون لحاهم، فهو يستحي أن يخالفهم، ولهذا لو قُدّر لهذا، أن يكون عمله في منطقة بعيدة، وبيئة لا يُلقي أهلها للحية بالًا، لربما وافقهم واتَّبعهم على ذلك.

فلا بد يا عباد الله، أن نستحضر الإخلاص والطاعة والعبادة، في كل عملٍ نقوم به.

فإن لم يكن كل هذا لله فإنه مردود على صاحبه، فيضمحل ويتلاشى ويعود كأن لم يكن.

ولم تؤت هذه الأعمالُ العظيمةُ ثمارَها، من ثبات وانشراحِ صدرٍ، وبركةٍ في الوقت والمال والولد.

السبب الرابع: تلاوةُ وتدبّر القرآن الكريم، والحذرُ من هجره، ومن أنواع هجر القرآن: هجرُ تلاوته وتدبّره، وفهم معانيه.

فالقرآن العظيم وسيلة الثبات الأولى، وهو حبلُ الله المتين، والنور المبين، من تمسك به عصمه الله، ومن اتبعه أنجاه الله، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

نصَّ الله تعالى، على أن الغاية التي من أجلها أنزل كتابه، هي

التثبيت، فقال تعالى في معرض الرد على شُبه الكفار: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان: ٣٢].

فما هي أحوالك مع كتاب الله ﷻ، كم يمر عليك من أيام، ولم تقرأ صفحة واحدة من كتاب الله، كيف يطيب لك العيش وأنت لم تتلذذ وتستمتع بتلاوة القرآن، قال الله تعالى عن القرآن ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٢١] هل خشع قلبك ولو مرة واحدة في عمرك من أثر القرآن، أيتصدع ويخشع جبلٌ، وأنت لا يتحرك قلبك، ولا تهتز مشاعرك من أثر هذا القرآن، فكيف لمن هذا حاله، أن يثبت عند الأزمات، ولا تطغيه الملهيات، وقد فقد أعظم سبب للثبات حتى الممات.

السبب الخامس: اختيار الصحبة الصالحة، وقضاء الوقت معهم، والبعدُ عن الفراغ أو الصحبة السيّئة، فرفقاء السوء الذين لا يزيدونك من الله إلا بُعدًا هم من أعظم أسباب الانتكاسة والردّة، فكيف يرجو الثبات والاستمرار على الاستقامة من يجالس قومًا بُغضاء عند الله، يجترئون على محارم الله، يُغْرونه بالشهوات، ويحثّونه على السفر للملْهيات، ويُثيرون الشّبه عليه كلما قابلهم أو تواصل معهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية، وهل آفة الناس إلا الناس، وهل كان علي أبي طالب عند الوفاة أضر من قرناء السوء، لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد. اهـ[1].

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٥).

وكذلك ابتعدي عن الفراغ، فهو قاتلٌ، ولا يسلم الفارغ من أفكارٍ شيطانيّة، ووساوس إلحاديّةٍ أو شهوانيّة.

❊ ❊ ❊

«وهذه قصة كُفْرها وسبب هدايتها بِقَلَمِها».

كنت في السابق أُحب الله تعالى كثيرًا، وأستمتع إذا سمعت أحدًا يذكر لي الله تعالى، وأُحسّ بسعادةٍ وأنس عند ذكره، وبعد دخولي للجامعة انغمست في ملذات الدنيا، ونسيت الله كثيرًا، لكنّني مستمرةٌ في صلاتي، لكن أُأَخِّرها عن وقتها، وفي آخر سنةٍ لي في الجامعة تبت إلى الله ﷻ من كل الذنوب، ومن أيّ أمرٍ يُغضبه، وجاهدتّ نفسي كي أُرضيه.

ثم تخرَّجْتُ من الجامعة، ودخلت تحفيظ قرآن.

ثم جاءت الطامّة والمصيبة، حينما حمَّلت برنامجًا في جوالي ـ ويا ليتني ما حملته ـ كان في بالي أنْ أُحَمِّلَهُ كي أَستفيد منه في الدين، وهذا البرنامج عبارةٌ عن غرفٍ، ودخلت أحد الغرف الملحدة، وكنت لا أتصور ولا أتخيل أنهم سَيُؤَثِّرون علي وعلى عقيدتي بربّي.

وكانت الطامةُ أنّي انْهَزَمْتُ أمامهم، وبَدَأتْ تُراودني الشكوك ـ كيف وكيف وهل صحيح.. وإلى ما لا نهاية من الأسئلة الْمُشككة الْمُضلّلة والْمُحيّرة.

لقد ضعف إيماني جدًّا، كنت لا أنام الليل تمامًا بسبب هذه الأفكار، تغيَّرتْ علاقتي مع الناس وأهلي وأمي وأبي، أصبحت أُنفس غضبي عليهم، وهو أمرٌ لا أستطيع التحكم فيه، كانت نفسيّتي مُنحطّة، قلت في نفسي: لماذا يحدث هذا لي؟؟ فأَجهشُ بالبكاء.

صرختُ وقلت: يا رب لا تتركني، أنا أُحبك، وأُريد أن أسجد لك يوم تَكشف عن الساق.

ابْتعدتّ عن الناس في حالة اختلاء مع النفس، وكل ما ابْتعدت عنهم ازدادت الوساوس، فعلمتُ بأنّ الفراغ لا يُناسبني.

ومضت أيامٌ تعذبت فيها، ثم قلت: سأذهب إلى دار تحفيظ القرآن، لعلي أجد رفقةً صالحةً تنتشلني من هذه الشكوك القاتلة، ولعلي أقرأ القرآن والتفسير لترجع لي عقيدتي الصافية التي ضاعت! وفعلًا الْتحقت بالدار، ولكن بدون جدوى.

مضت الأيام الطويلةُ وأنا على هذا الحال، فتعبت وتعبت حتى أصبحت أذهب لطبيبٍ نفسيٍّ، حيث جال في خاطري أنّ ما حلّ بي قد يكون بسبب نقص فيتاميناتٍ سَبَّبَتْ لي هذه الوساوس، فذهبت إليه، وأخذت الحبوب والنصائح، ولكن دون جدوى، لم أستفدْ من هذه العلاجات.

وبعد هذه التجربة الفاشلة قرّرت الذهاب إلى راقٍ، فقد أكون أُصبتُ بعينٍ أو مسٍّ أو سحرٍ، سَبَّبَ لي هذه الوساوس؛ لأنّي كنت أدخل من سؤال مُشكك إلى سؤالٍ مُشكك آخر! وأنا لم أقرأ ولم أطّلع على مواقع الملحدين، فتأتيني أفكار جديدةٌ علي، فكدّت أُجنّ: ما هذا اللي يحصل لي، كنت على وشك الجنون، حتَّىَ شاب شعر رأسي وأنا لا زلتُ صغيرةً في العمر ـ في العشرينات ـ.

فوالله لقد هزلت أكثر، وأصبحتُ أحسد أيَّ شخصٍ مُؤْمنٍ، حتى إني كنت أحسد الخادمة بسبب إيمانها.

فساءت حالتي حتى تركتُ دار التحفيظ، فازْدادت علي الوساوس، فقلت: لا بدّ أنْ أملأ فراغي، فقد أيْقنت أنَّ الفراغ سببٌ رئيسيٌّ لكثرة وساوس، فسعيت في الوظيفة حتى توظفت معلمةً في مدرسةٍ خاصةٍ، ولكن ما لبثتُ فصلًا واحدًا حتى تركت وظيفتي!!

وبعد تركي للوظيفة بِمُدّةٍ قرّرت أنْ أبحث عن شخصٍ يجيب عن أسئلتي، فذهبت إلى موقع التواصل (تويتر) فوجدّت الكثير من المشايخ الذين يردُّون على الشبهات، فأسْتَمِعُ إلى رُدودِهم ونقاشهم، فسُررت لأني سأُصبح مؤمنة، لكن كان كلامهم لي مجرد جرعةٍ وتزول بعد الانتهاء في النقاش، فكنت أبكي من الألم، وشوقًا لأن أكون مسلمةً فحياتي في ضيق واكتئاب، كرهتُ نفسي! وكرهتُ الناس!

كنتُ أتساءلُ وأقول: لو مِتُّ وظهر أنَّ القرآن حقٌّ، والرسول حقٌّ، وتبيّن أنه يوجد قيامةٌ، من سيعصمني من عذاب الله تعالى؟

أمضيتُ سنتين كاملتين وأنا متعذبةٌ بالأفكار الإلحاديّة، ولكن لم أيأس! فقد رجعت إلى مشايخ آخرين لِمُناقشتهم، كي يُقنعوني ويُرجعون لي إيماني ويُخرجون من قلبي تلك الشبهات التي كادت تُقطع نِياط قلبي، فناقشت أحدهم، ولكن نفس الأول: جرعة وتنتهي!

أحسست ـ والعياذ بالله ـ أنّ الله يكرهني، وأنه ليس براضٍ أن أكون مسلمة! حتى ـ وأعوذ بالله ـ شعرت بكرهٍ له تعالى، لِمَاذا تفعل بي كلّ هذا؟ أنت سببُ كفري! لقد جاهدتْ سنتين ولم أر الهداية! حتى تلفظت بألفاظ وعبارات كفرية أشد وأفظع!

لكن بعدها بساعات أذهب إلى غرفتي لوحدي فأبكي وأقول: يا رب أنا أحبك، وأنت تعلم أنّ هذا الكلام ليس من قلبي.

وبالرغم من هذه الأفكار الإلحاديّة كنت أُجاهد نفسي وأُصلي وأصوم وأحج، ولكن بدون لذة.

فدخلت موقع التواصل (تويتر) كثيرًا، وأقرأ عن الرد على الشبهات، حتى عثرتُ على مقالٍ للشيخ أحمد الطيار مع طالبٍ في المرحلةِ الثانوية، كأني أقرأ أسئلةَ الطالب التي يسألها للشيخ، وأقرأ رد

الشيخ، ففرحتُ كثيرًا وشعرتُ بارتياح، فبحثتُ عن رقم الشيخ من نفس المقال؛ لأنّ عندي أسئلةً أُخرى، فاتّصلتُ عليه ورَدّ بصدر رحب، وذكرت له كل ما أشكل علي وأجاب عليه، فأراحني كثيرًا والحمد لله، وكأني قد وُلدّت من جديد.

وسألني بعد الأخذ والردّ أنْ أُسلم، فقلت له: أمهلني أُسبوعين، حتى أتأكد من قلبي، فقررت خلال يومين أن أُسلم، وقلت: لقد قامت علي الحجة، فلا بد أن أُقرّر الآن: يا إيمان أو إلحاد! فما هو إلا أنْ أعلنت إسلامي للشيخ:

[أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله].

شعرت بعدها أني وُلدتّ من جديد، وسجلت تاريخ إسلامي منذ نطقي بالشهادة.

الإلحاد والله ضياعٌ، فالْمُلْحِدُ كأنه بهيمة، يسير بدون هدف، ودون خوف من الموت.

فكرّت كثيرًا: الله تعالى خلقنا لهدف، ليس عبثًا، ومردُّنا إلى الله.

كانت تَمُرُّ علي ليالي أبكي من الهموم، لم يكن أحدٌ يعلم بإلحادي إلا والدي، ناداني مرّةً، فلما جئت إليه قال لي بحرقةٍ وألم: يا ابنتي، لا أُريد أن ندخل الجنة جميعًا وتدخلي أنت في النار!!

يا الله!! أبكتني هذه الكلمة دمًا بدل الدمع، فأنا مُتَعلقةٌ بأهلي، ولا أُطيق فِرَاقهم، وأريد أن أراهم في الدنيا والآخره.

وأقول أخيرًا: الإيمان راحة بال، وتعرف به هدفك في الحياة، ولك قيمتك كمسلم، أنا الآن أحس بدنيا جديدة، الحمد لله، أنا مع الله، ادعوا لي بالثبات.

❊ ❊ ❊

وفي نهاية هذه القصة الطويلة مع هذه الفتاة التي عاشت مرارة الحيرة والشك والإلحاد، ثم ذاقت حلاوة الإيمان، والطُمأنينة والسعادةَ والراحة في ظل العقيدة الصحيحة، والفطرة السوية، هي رسالةٌ لكلّ عاقلٍ ألا ينجرف وراء المواقع المشبوهة، والأفكار الْمُضلِّلة.

إنّ الإيمان هو أول وأهم أسباب استقرار النفس البشرية، وبدونه لا تُطيقُ النفس المكث في البدن، فإذا لم يقم صاحبها بإشغالها باللذات الدنيويّة، من خمر وسفر وضحك، وإلا فسوف تدعوه إلى الانتحار، كما فعل آلاف الحيارى أمثالُها.

وهذه القصة ذكرتُها دون زيادة أو نقصان، سوى بعض الشواهد التي ذكرتها لها، فأثبتها من مصادرها، وقمتُ بنقل كلامها من العاميّة إلى العربية.

❊ ❊ ❊

وهنا أقف مع أخطاءٍ يَرْتَكبها الكثير ممن يُحاور ويُناقش أحدًا يُخالفه:

١ ـ أن يجعل منطلق الحوار والنقاش من الأشياء التي تشكل على خصمِه، ويحتج بها، بل ينبغي له أنْ يبدأ معه من الأساس ومن أول نقطة، ثم يتسلسل معه حتى يصل إلى مكان إشكاله.

فإذا بدأ نقاشه معه مع أشياء يُسلّم بها، ويُقرّ بصحتها: سهل إقناعه في الأمور التي يعترض عليها.

فلا ينبغي عند مُناقشة الملحدين ومن شابههم الاستدلال عليهم بأدلة الكتاب والسنة، فهم لا يُؤمنون بها، ولو لم يُنكرها صراحةً، بل ينبغي أنْ يكون الاستدلال بالمنطق والعقل.

وفي هذا يقول الشاطبي رحمه الله تعالى: إِذَا كَانَتِ الدَّعْوَى لَا بُدَّ لَهَا مِنْ دَلِيلٍ، وَكَانَ الدَّلِيلُ عِنْدَ الْخَصْمِ مُتَنَازَعًا فِيهِ: فَلَيْسَ عِنْدَهُ بِدَلِيلٍ؛ فَصَارَ الْإِتْيَانُ بِهِ عَبَثًا لا يفيد فائدة ولا يحصل مقصودًا، ومقصودُ المناظرة رَدُّ الْخَصْمِ إِلَى الصَّوَابِ بِطَرِيقٍ يَعْرِفُهُ..

فَلَا يُؤْتَى فِيهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ يُقِرُّ الْخَصْمُ بِصِحَّتِهِ شَاءَ أَمْ أبى.اهـ[1].

٢ ـ أنْ يناقش خصمه دون وضع قانونٍ وطريقةٍ يتفق عليها هو والطرف الآخر، وإلا لأصبح الحوار مُبعثرًا مُشتَّتًا، لا يخرجان بنتيجةٍ في النهاية.

٣ ـ أنْ يُناقشه عن الأمور الفرعية، بل الأولى أنْ يتركها، ويطلب منه أنْ يُرجئ الأمور الفرعية والجزئية، ويجعل النقاش في الأمور الكلِّيَّة والأساسية، التي غالبًا ما يتفقان عليها.

٤ ـ وأنْ يكون بجوٍّ متوتِّرٍ، وبأسلوبٍ جافٍّ أو فيه سرعةٌ وحماسٌ شديد، بل ينبغي أن يكون النقاشُ بجوٍّ مليءٍ بالهدوء، ويكون الطرح والنقاش بهدوءٍ أيضًا.

ولْيحتمل ما يسمعه من تجاوزات أو كلام سيّء، ولْيُداره ويصبر عليه.

قال الشاطبي رحمه الله تعالى: الْأَدَبُ فِي الْمُنَاظَرَةِ أَنْ لَا يُفَاجِئَ بِالرَّدِّ كِفَاحًا دُونَ التَّقَاضِي بِالْمُجَامَلَةِ وَالْمُسَامَحَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سَبَإٍ: ٢٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزُّخْرُفِ: ٨١].

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ [هُودٍ: ٣٥].

(١) «الموافقات» (٥/ ٤١٥).

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٤٣].

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الْمَائِدَة: ١٠٤].

لِأَنَّ ذَلِكَ أَدْعَى إِلَى الْقَبُولِ وَتَرْكِ الْعِنَادِ وَإِطْفَاءِ نَارِ الْعَصَبِيَّةِ. .اهـ[1].

٥ ـ أنْ يكون قصد المحاور إفحام خصمه، وهذا لا ينبغي أنْ يشعر ويحسّ به الطرف الآخر الذي لا يكون داعيةً إلى بدعته، ولم يُعرف عنه العناد والشر، بل ينبغي أنْ يُوضح لمن يُحاوره أنه يقصد رحمته، وأنه مشفقٌ عليه كما هو الواقع حقيقةً.

❊ ❊ ❊

الأدلةُ العقليّة على وجود الله تعالى وصدق القرآن ورسول الأنام ﷺ:

أما الأدلةُ العقليّة على وجود الله ﷻ، وإثبات أنَّ الدين الإسلامي هو الدين الحق «فها هنا سؤال: لو أن سيارة تسير في الطريق لوحدها بغير قائد وبدون أي جهاز تحكم، فهي تسير تلقائيًا بلا أي سائق، فتأخذ الركاب وتنقلهم إلى مدينة أخرى، فتنزلهم وتحمل غيرهم، وتقوم بالاعتناء بنفسها، وتصلح العطل الآلي، وتركب القطعة بنفسها؛ فهل يعقل هذا أم أن الجواب المتفق عليه عند جميع العقلاء أن هذا ممتنع ولا يمكن حصوله؛ لأنه قد اتفقت كلمة العقلاء على أنه لا بد لكل سبب من مسبب، ولكل مفعول من فاعل، وبعبارة أخرى: لابد للحدث من محدث.

(١) «الموافقات» (٢/ ١٦٧).

مثال آخر: ها أنت قد دخلت غرفتك فوجدت فيها حاسوبًا يعمل عملًا متقنًا، فهل يعقل أن هذا الجهاز قد صنع نفسه بنفسه؟ هل يصدق عاقل أن بهذا الحاسوب قد ركب كل هذه الأجهزة الدقيقة من تلقاء نفسه دون أن يكون ذلك بفعل فاعل؟! فسيقول لك: لا يمكن. وأما إن جحد وقال: يمكن، فهذه مكابرة ولا مجال للكلام مع من يخالف ما اتفق عليه عقلاء الناس؛ لأنه ليس في عِدادهم في هذه الحالة، فإذا أقر أن هذا غير ممكن فيقال حينئذ:

انظر في هذا النظام الكوني المتناهي في الدقة الذي هو غاية في التنظيم، انظر إلى الشمس كيف تشرق من المشرق وتغرب من المغرب من آلاف السنين بنظام دقيق لا تحيد عنه، وهذه الشمس هي السبب في استمرار الحياة على الأرض، فكل الكائنات الحية تحتاجها؛ لأن منها النور والضياء الذي لا غنى للحياة عنها، سواء كان ذلك في النباتات أو في الحيوانات أو في الإنسان.

انظر إلى بدنك، وانظر إلى التركيب المتناهي في الدقة، أجهزة جسمك، سواء كان ذلك في الجهاز العصبي أو كان ذلك في سائر الأجهزة كالجهاز الهضمي مثلًا، وانظر إلى كيفية عمل هذه الأجهزة بتناسق كامل، فها هو الطعام يدخل فيهضم، ثم بعد ذلك يتصرف منه الفضلات فتخرج من محلها المناسب.

انظر إلى الكائنات الحية الموجودة في بدن الإنسان والتي توفر له الاستمرار في الحياة، سواء كان ذلك في كريات الدم البيضاء التي وظيفتها الدفاع عن هذا البدن، والتي يحوي منها الإنسان ما لا يحصى عددًا في بدنه، وكيف أنها تنتج تلقائيًا من خلال البدن.

انظر إلى القلب وكيف أنه هو المضخة لهذا الدم الذي لو توقف لدقيقة واحدة لمات الإنسان، وهو يعمل تلقائيًا في بدنه.

انظر إلى الجهاز العصبي الذي يعطي الإشارات والرسالات لسائر البدن للقيام بوظائفها.

انظر إلى عينيك كيف يقع عليها الضوء، فتنعكس إلى مرحلة حتى تصل إلى محلها من الجهاز العصبي لتحصل الصورة في عينك، وكذلك إلى جهازك السمعي الذي تسير فيه الأمواج الصوتية لتقرع طبلة أذنك حتى تتحلل بعد ذلك في الجهاز العصبي إلى أصوات مفهومة مسموعة لك.

أكل ذلك وقع صدفة وبغير فعل فاعل؟! فإذا كنت تُقر أن جهاز الحاسوب الذي لا يستطيع أن يخدم نفسه بنفسه إلا أن يحركه محرك، أنه لا يمكن أن يوجد إلا بفعل فاعل، فهذا الإنسان لا يمكن أن يكون كذلك إلا بفعل فاعل، وهذه السموات التي فيها الملايين من الأفلاك والمجرات والأبراج كلها تدور في نظام محكم دقيق، لو حاد شيئًا ما ولو يسيرًا لتدمرت الأرض ولزالت من أساسها ولذهبت الحياة واندثرت، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١]، أكل ذلك أيضًا بغير فعل فاعل؟!!

وإليك دليل آخر:

كيف وجدت الحياة في الأرض؟ كيف وجد العالم أصلًا من سمائه وأرضه بما فيه من أفلاك ومجرات؟ فإن قال: من الخلية الأولى كما هي النظرية (الدارونية)، نظرية الإلحاد، وهي نظرية (النشوء والارتقاء)، فالجواب: فمن أوجد الخلية الأولى؟ فإنه سيعجز؛ لأن الخلية الأولى

لابد لها من موجد أيضًا، وإلا أدى إلى التسلسل إلى ما لا نهاية، وهذا قد اتفق عامة العقلاء على نفيه، ولذلك كان (دارون) نفسه مقرًّا في آخر حياته بأن نظريته تقوم عليها أسئلة لا يستطيع الإجابة عنها، وهذا هو السؤال الأعظم الذي عجزوا عن الإجابة عنه، وغاية ما عندهم أن الدنيا تكونت (صدفة) وحصل انفجار هائل.

والجواب: هذه الأجسام التي انفجرت من أوجدها حتى تكونت؟ وهل يُعقل أن تنفجر فيحصل مثل هذا النظام الدقيق المتناهي في الدقة، وتحصل الحياة على نمط واحد، وعلى صورة متكافئة يخدم بعضها بعضًا بدون مُوجد؟!

إن هذا ممتنع لدى عامة العقلاء، ولذلك فمن جحد مثل هذه الأدلة، فإنما يكابر ويتجاهل تجاهل العارف الذي يعرف يقينًا صحة ما يقال، ولكنه ينكر ذلك استكبارًا وبغيًا.

فهذه حجة ظاهرة عقلية لا يدفعها إلا جاحد مستكبر، وقد سيقت لك سوقًا وسطًا، وإلا فالأمر أجل وأبسط من هذا الأمر»[(١)].

أما الحديث عن عظمة هذا القرآن الذي بين أيدينا، وإعجازِه وبلاغتِه، فلا يُمكن إحصاؤه، ولا الإتيان على عشر معشار ذلك.

ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

القرآنُ الكريمُ هو النورُ الذي عدّل الموازين، وصح المفاهيم، فحطم كِيان الوثنية، وأزال ما في قلوب الكافرين من الحمية الجاهلية، وأيقظَ العقول السادرة، ونبّه القلوب الغافلة، وأحيى الضمائر الميتة، وسار بالإنسان نحو الفطرة السوية.

(١) إسلام ويب: رقم الإستشارة: ١١٠٧٥٠.

قال العلامةُ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو أنَّ رَجُلًا ادَّعَى فِي بِلَادٍ كَثُرَتْ فِيهَا الْأَمْرَاضُ أَنَّهُ طَبِيبٌ وَأَنَّ دَلِيلَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ أَلَّفَ كِتَابًا فِي عِلْمِ الطِّبِّ يُدَاوِي الْمَرْضَى بِمَا دَوَّنَهُ فِيهِ فَيَبْرَءُونَ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِ الْأَطِبَّاءُ الْبَارِعُونَ فَشَهِدُوا بِأَنَّهُ خَيْرُ الْكُتُبِ فِي هَذَا الْعِلْمِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ عَمَلٍ، ثُمَّ عُرِضَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يُحْصَى عَدَدًا مِنَ الْمَرْضَى وَقَبِلُوا مَا وَصَفَهُ لَهُمْ مِنَ الْأَدْوِيَةِ فَبَرِءُوا مِنْ عِلَلِهِمْ، وَصَارُوا أَحْسَنَ النَّاسِ صِحَّةً، فَهَلْ يُمْكِنُ الْمِرَاءُ فِي صِحَّةِ هَذِهِ الدَّعْوَى مَعَ هَذَيْنِ الْبُرْهَانَيْنِ الْعِلْمِيِّ وَالْعَمَلِيِّ؟ كَلَّا. وَإِنَّ الْعِلْمَ بِطِبِّ الْأَرْوَاحِ أَعْلَى وَأَعَزُّ مَنَالًا مِنَ الْعِلْمِ بِطِبِّ الْأَجْسَادِ، وَإِنَّ مُعَالَجَةَ أَمْرَاضِ الْأَخْلَاقِ وَأَدْوَاءِ الِاجْتِمَاعِ أَعْسَرُ مِنْ مُدَاوَاةِ أَعْضَاءِ الْأَفْرَادِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الْقُرْآنَ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ، وَالْآدَابِ الْعَالِيَةِ وَأُصُولِ التَّشْرِيعِ الِاجْتِمَاعِيِّ وَالْمَدَنِيِّ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَالَجَ بِهِ أُمَّةً عَرِيقَةً فِي الشِّقَاقِ وَحَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ، غَرِيقَةً فِي الْجَهْلِ وَالْأُمِّيَّةِ وَرَذَائِلِ الْوَثَنِيَّةِ، فَشُفِيَتْ وَاتَّحَدَتْ، وَتَعَلَّمَتِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَسَادَتِ الْأُمَمَ مِنْ بَدْوٍ وَحَضَرٍ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا لَمْ يَتَعَلَّمْ شَيْئًا مِنَ الْعُلُومِ، وَلَمْ يَتَمَرَّسْ بِسِيَاسَةِ الشُّعُوبِ.

كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الْأُمِّيِّ مُعْجِزَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ فِي الْيُتْمِ

لَوِ اسْتَدَلَّ ذَلِكَ الطَّبِيبُ الْجَسَدَانِيُّ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُ بِعَمَلٍ غَرِيبٍ غَيْرِ مَأْلُوفٍ لِلنَّاسِ، وَلَكِنْ لَا عَلَاقَةَ لَهُ بِالطِّبِّ لَأَمْكَنَ الْمِرَاءُ فِي صِحَّةِ دَعْوَاهُ، كَذَلِكَ شَأْنُ هَذَا النَّبِيِّ فِي ادِّعَائِهِ أَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنَ اللهِ لِهِدَايَةِ الْبَشَرِ، فَإِنَّ كِتَابَهُ الْعِلْمِيَّ الْمُؤَيَّدَ بِنَجَاحِ الْعَمَلِ بِهِ أَدَلُّ عَلَى كَوْنِهِ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ مِنْ جَعْلِ عَصَاهُ حَيَّةً أَوْ إِحْيَائِهِ مَيِّتًا. لِأَنَّ هَذَيْنِ عَلَى غَرَابَتِهِمَا لَيْسَا مِنْ مَوْضُوعِ الْإِرْشَادِ وَالتَّعْلِيمِ، كَمَا أَنَّهُمَا لَيْسَا مِنْ مَوْضُوعِ الطِّبِّ، فَهُمَا إِنْ

دَلَّا عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ فَدَلَالَتُهُمَا لَيْسَتْ فِي أَنْفُسِهِمَا، وَالْإِتْيَانُ بِعَمَلٍ خَارِقٍ لِلْمَأْلُوفِ فِي الْعَادَةِ مَنْ سُنَنِ الْكَوْنِ هُوَ دُونَ الْإِتْيَانِ بِالْعُلُومِ الْعَالِيَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالتَّشْرِيعِيَّةِ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ، فَكَيْفَ بِالْإِتْيَانِ بِأَنْبَاءِ الْغَيْبِ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ؟ فَكَيْفَ بِصَلَاحِ حَالِ مَنْ عَمِلُوا بِهَذِهِ الْعُلُومِ دِينًا وَدُنْيَا؟ فَالْقُرْآنُ إِذًا بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّ مَا فِيهِ مِنَ الطِّبِّ الرُّوحَانِيِّ الِاجْتِمَاعِيِّ وَحْيٌ مِنَ الرَّبِّ الْمُدَبِّرِ الْحَكِيمِ لَا يُمَارِي فِيهِ إِلَّا مُعَانِدٌ مُكَابِرٌ أَوْ مُقَلِّدٌ جَاهِلٌ». اهـ[1].

أقول: إنَّ كلَّ خبرٍ يُقطَع بصحته، إذا اجْتمعَ فيه أمران:

شهادةُ أهل الخبرة والاختصاص بصحته وصوابه.

ومجيئُه على الوصف الذي جاء الخبر به.

فأما شهادةُ أهل الخبرة بصحته وصوابه، فسيأتي الحديث عن شيءٍ منه عند الحديث عن شهادة بعض علماء وأطباءِ الغرب في نبينا محمد.

وأما مجيئُه على الوصف الذي جاء الخبر به.

فهو أشهر من أنْ يُحصر، وأغنى مِن أنْ يُذكَر، فكم هي الاكتشافاتُ العلميةُ، التي جاء بها القرآن قبل اكْتشافها، ونطق بها قبل اشْتهارها.

ويكفي أنْ نعلم بأنَّ كثيرًا من علماء الغرب في الطِّبِّ والفَلَكِ، قد أسلموا وصدَّقوا بالقرآن الكريم، حين علموا أنْ ما اكتشفوه قد سبقهم به القرآن الكريم.

كعالم الجراحة الفرنسي: مُورِيْسْ بُوكاي.

من هو موريس بوكاي؟!

إنه شامة فرنسا ورمزها الوضَّاء..

(١) «تفسير المنار» (١/ ٢٢٦)، مع بعض التصرف اليسير.

وعندما طلبت فرنسا من دولة (مصر) عام: ١٩٨١م استضافة مومياء (فرعون مصر) إلى فرنسا لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية ومعالجة..

وتم نقله إلى جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي، ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار في فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها، وكان رئيس الجراحين والمسؤول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونية هو البروفيسور موريس بوكاي.

وتحيّر كيف بقيت هذه الجثة دون باقي الجثث الفرعونية المحنطة أكثر سلامة من غيرها، رغم أنها استخرجت من البحر..! كان موريس بوكاي يعد تقريرًا نهائيًّا عما كان يعتقده اكتشافًا جديدًا في انتشال جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة، حتى همس أحدهم في أذنه قائلًا لا تتعجل فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء..

ولكنه استنكر بشدة هذا الخبر، واستغربه، فمثل هذا الاكتشاف لا يمكن معرفته إلا بتطور العلم الحديث وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة.

بينما كتابهم الإنجيل يتحدث عن غرق فرعون أثناء مطاردته لسيدنا موسى عليه السلام دون أن يتعرض لمصير جثمانه البتة.. وأخذ يقول في نفسه: هل يعقل أن يكون هذا المحنط أمامي هو فرعون مصر الذي كان يطارد موسى؟!

وهل يُعْقل أنْ يعرف محمدهم هذا قبل أكثر من ألف عام وأنا للتو أعرفه؟!

وحتى الإنجيل لم يتحدث عن نجاة هذه الجثة وبقائها سليمة.

وقرر أن يسافر إلى المملكة السعودية لحضور مؤتمر طبي يتواجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين..

وهناك كان أول حديث تحدثه معهم عما اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد الغرق.. فقام أحدهم وفتح له المصحف وأخذ يقرأ له قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٢].

لقد كان وقع الآية عليه شديدًا، فوقف أمام الحضور ويصرخ بأعلى صوته: «لقد دخلت الإسلام وآمنت بهذا القرآن».

ثم رجع إلى فرنسا بغير الوجه الذى ذهب به.. وهناك مكث عشر سنوات ليس لديه شغل يشغله سوى دراسة مدى تطابق الحقائق العلمية والمكتشفة حديثًا مع القرآن الكريم، والبحث عن تناقض علمي واحد مما يتحدث به القرآن ليخرج بعدها بنتيجة قوله تعالى ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٣].

كان من ثمرة هذه السنوات التي قضاها الفرنسي موريس أن خرج بتأليف كتاب عن القرآن الكريم هز الدول الغربية قاطبة ورج علماءها رجًّا، لقد كان عنوان الكتاب (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم.. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة).

وقد أُعيدتْ طباعته بمئات الآلاف، بعد أن ترجم من لغته الأصلية (الفرنسية) إلى العربية والإنكليزية والأندونيسية والفارسية.

لينتشر بعدها في كل مكتبات الشرق والغرب.

صدق الله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

تأمل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ

جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

هذه الآية نقرأها كثيرًا ولا نجد لها تأثيرًا علينا، لكنها أثرت أثرًا بالغًا على أشهر علماء الغرب في علم الأجنَّة، وهو الطبيب الكندي البروفيسور كيث مور، صاحب الكتاب الشهير، «التطور الإنساني» الذي ترجم إلى أكثر من ٢٥ لغة في العالم، وقد أعلن إسلامه في العام ١٩٨٠م بمجرد سماعه لهذه الآية، التي تتناول تكوين الجنين والإنسان، التي سبقت كل العلم والتكنولوجيا منذ قرون مضت.

حيث وجد أن هذه الآيات تطابق تمامًا العلم الحديث، فكانت هذه الآيات سببًا في إيمانه ورؤيته نور الحق.

أحد القساوسة في مصر يحكي قصة إسلامه المؤثرة، فهو كان يقول قبل أن يسلم ويتساءل: إذا كنتُ أنا أغفر للناس خطاياهم فمن يغفر لي؟ وإذا كنتُ أعطي للناس المغفرة على ذنوبهم، فمن يغفر لي؟ وبعد ذلك يقول: بينما كنتُ في طريقي إلى السفر في أحد الباصات، إذ بغلام يأتي ويوزع كتيبات عن آيات من القرآن، وأعطاني واحدًا منها.

وعلى الفور فتحتُ الكتيب لأنظر ما فيه ووقع نظري على عبارة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾!!! هذه العبارة غيرت حياتي فيما بعد! لقد أثرت فيّ منذ اللحظة الأولى حتى إنني تركتُ السفر وعدتُ إلى بيتي، وبقيتُ أفكر وأحاول الإجابة عن سؤال واحد: هل يوجد إله غير الله؟

وكانت هذه الآية سببًا في اعتناقي الإسلام.

وصدق الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُرِي عِبَادَهُ مِنَ الْآيَاتِ الْمَشْهُودَةِ، الَّتِي هِيَ أَدِلَّةٌ عَقْلِيَّةٌ، مَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ.

ومن أمثلةِ مجيء القرآن على الوصف الذي أخبر به: أنه تحداهم بأن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك، بل وأخبر أنهم لن يأتوا بمثله.

وقد أثار حفيظتهم، واسْتثار همَّتهم لمعارضته في آياتٍ كثيرةٍ، منها قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

«فكَانَ يَتَحَدَّاهُمْ بِمِثْلِ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي تُثِيرُ النَّخْوَةَ، وَتُهَيِّجُ الْغَيْرَةَ، مَعَ عُلُوِّ كَعْبِهِمْ فِي الْبَلَاغَةِ، وَرُسُوخِ عِرْقِهِمْ فِي أَسَالِيبِهَا وَفُنُونِهَا، فِي عَصْرٍ ارْتَقَتْ فِيهِ دَوْلَةُ الْكَلَامِ ارْتِقَاءً لَمْ تَعْرِفْ مِثْلَهُ الْأَيَّامُ، حَتَّى كَانُوا يَتَبَارَوْنَ فِيهِ وَيَتَنَافَسُونَ، وَيُبَاهُونَ وَيُفَاخِرُونَ، وَيَعْقِدُونَ لِذَلِكَ الْمَجَامِعَ وَيُقِيمُونَ الْأَسْوَاقَ، ثُمَّ يَطِيرُونَ بِأَخْبَارِهَا فِي الْآفَاقِ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَتَصَدَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِلْمُعَارَضَةِ، وَلَمْ يَنْهَضْ بَلِيغٌ مِنْ مَحافلهم إِلَى الْمُنَاهَضَةِ.

بَلْ إنهم فضَّلوا القتال على القبول بهذا التحدِّي، وَرضوا بِسَفْكِ دِمَائِهِمْ بِأَسْيَافِهِمْ، وَتَخْرِيبِ بُيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ، أَفَلَمْ يَكُنِ الْأَجْدَرُ بِبُلغاءِ قُرَيْشٍ وَفُحُولِهَا، أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى تَأْلِيفِ سُورَةٍ بِبَلَاغَتِهِمُ، الَّتِي كَانُوا يَتَبَارَوْنَ فِيهَا، بِسُوقِ عُكَاظَ وَغَيْرِهَا مِنْ مَجَامِعِ مُفَاخَرَاتِهِمْ، وَيُؤْثِرُوا هَذَا عَلَى سَوْقِ الْجُيوشِ مِنْ صَنَادِيدِهِمْ، إِلَى المدينةِ لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَنْ آمَنَ بِهِ، فِي بَدْرٍ وَأُحُدٍ وَوَرَاءَ الْخَنْدَقِ، لَوْ كَانَ ذَلِكَ مُسْتَطَاعًا لَهُمْ؟.

فَلَا شَكَّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى، قَدْ رَفَعَ هَذَا الْكَلَامَ إِلَى دَرَجَةٍ لَا يَرْتَقِي الْبَشَرُ إِلَيْهَا.

اللَّـهُ أَكْـبَـرُ إِنَّ دِيـنَ مُـحَـمَّـدٍ وَكِـتَـابَـهُ أَقْـوَى وَأَقْـوَمُ قِـيـلًا
لَا تَذْكُرُوا الْكُتُبَ السَّوَالِفَ عِنْدَهُ طَلَعَ الصَّبَاحُ فَأَطْفَأَ الْقِنْدِيلَا

والعجيب «أَنَّنَا نَجِدُ القرآن، لَمْ يَلْتَزِمْ شَيْئًا مِمَّا كَانُوا يَلْتَزِمُونَ بِسَجْعِهِمْ، وَرَجَزِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ، بَلْ جَاءَ عَلَى النَّمَطِ الْفِطْرِيِّ، وَالْأُسْلُوبِ الْعَادِيِّ، الَّذِي يَتَسَنَّى لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَحْذُوَ مِثَالَهُ، وَلَكِنَّهُمْ عَجَزُوا، فَلَمْ يَأْتُوا وَلَنْ يَأْتِيَ غَيْرُهُمْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ.

ثُمَّ نُلَاحِظُ أَيْضًا: أَنَّ الْقُرْآنَ بِهَذَا الْأُسْلُوبِ قَدْ تَحَدَّى بِهِ كُلَّ مَنْ بَلَغَهُ مِنَ الْعَرَبِ، عَلَى تَفَرُّقِ دِيَارِهِمْ، وَتَنَائِي أَقْطَارِهِمْ، وَأَرْسَلَ الرَّسُولُ إِلَى الْأَطْرَافِ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، فَعَمَّتِ الدَّعْوَةُ وَبَلَغَتْ مَبْلَغَهَا، وَلَمْ يَنْبَرِ أَحَدٌ لِلْمُعَارَضَةِ، أَلَا يَدُلُّ هَذَا عَلَى نِهَايَةِ الْعَجْزِ وَعُمُومِهِ، وَعَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَهُ فَوْقَ الْقَدْرِ، خَارِقًا لِمَا يَعْتَادُ مَنْ كَسْبِ الْبَشَرِ؟ بَلَى»[1].

فهل يبقى لأحدٍ له ذرَّةُ عقلٍ، يرى دلائلَ إعجازِ القرآن طافحةً مُسْتفيضة، ويرى كثيرًا من زعماء وعلماء الغرب والشرق، يُذعنون ويُؤمنون به، ثم لا يزال هو في ريبٍ ممّا جاء به القرآنُ، من وعيدٍ وتحذير للمكذبين والمذنبين؟.

هذا القرآن الكريمُ، جاء فيه التحذير من عذابٍ أليمٍ للمكذبين، وتوعد بالنيران للمذنبين والظالمين، فكيف لعاقلٍ يرى مثل هذه الدلائل الواضحة العظيمة، ثم يستمر في غيِّه وضلاله؟.

وأَنْقُلُ كلامًا نفيسًا من كتاب النبأ العظيم لمحمد دراز رَحِمَهُ اللهُ، حيث قال:

«أيُّ مصلحة للعاقل الذي يدَّعي لنفسه حق الزعامة، ويتحدى

(١) «تفسير المنار» (١/٢٠٣ ـ ٢٠٤).

الناس بالأعاجيب والمعجزات، لتأييد تلك الزعامة، أيُّ مصلحة له في أن ينسبَ بضاعته لغيره، وينسلخَ منها انسلاخًا؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعةً وفخامةَ شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدًا يعارضه ويزعمها لنفسه.

الذي نعرفه أن كثيرًا من الأدباء، يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها، أو يسرقون منها ما خف حمله، وغلت قيمته، وأمنت تهمته، حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأثواب المستعارة. أما أن أحدًا ينسب لغيره أنفس آثار عقله وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته، وعباراته وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خلوته وجلوته.. لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المداجاة والمواربة، وأن سره وعلانيته كانا سواءً في دقة الصدق وصرامة الحق في جليل الشئون وحقيرها، وأن ذلك كان أخص شمائله وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها، كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه إلى يومنا هذا ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦].

ولْنقدم شيئًا من سيرته المطهرة مُثُلًا واضحة الدلالة، على مبلغ صدقه وأمانته في دعوى الوحي، وأنه لم يكن ليأتي بشيء من القرآن من تلقاء نفسه:

ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ وأبطأ الوحي، وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس: «إني لا أعلم عنها إلا

(١) «النبأ العظيم» (ص١٧).

خيرًا»، ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء. لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «**يا عائشة، أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله**».

هذا كلامه بوحي ضميره، وهو كما نرى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظن، ولا يقول ما ليس له به علم. على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلنًا براءتها، ومصدرًا الحكم المبرم بشرفها وطهارتها. الحديث أخرجه الشيخان وغيرهما.

فماذا كان يمنعه ـ لو أن أمر القرآن إليه ـ أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه وينسبها إلى الوحي السماوي لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى.

وأخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه. فيخطئه في الرأي يراه. ويأذن له في الشيء لا يميل إليه، فإذا تلبث فيه يسيرًا تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد، والعتاب القاسي، والنقد المر، حتى في أقل الأشياء خطرًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ [التحريم: ١]، ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة: ١١٣]، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]، ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس: ٥ ـ ١٠].

أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وُجدانه، معبرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه: أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل؟

ألم يكن له في السكوت عنها سترًا على نفسه، واستبقاءً لحرمة آرائه؟

بلى.

إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئًا من ذلك الوجدان، ولو كان كاتمًا شيئًا لكتم أمثال هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير: ٢٤].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: إنها لعجيبة حقًّا: رجل أمي بين أظهر قوم أميين، يحضر مشاهدهم ـ في غير الباطل والفجور ـ ويعيش معيشتهم مشغولًا برزق نفسه وزوجه وأولاده، راعيًا بالأجر، أو تاجرًا بالأجر، لا صلة له بالعلم والعلماء؛ يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره، ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته، وربما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك، ويُبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى مما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطرهم. أفي مثل هذا يقول الجاهلون: إنه استوحى عقله واستلهم ضميره؟ أي منطق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمي نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية؟ إنه لا مناص في قضية العقل

من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سر آخر يلتمس خارجًا عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦].

أي: أني قَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ دهرًا وزمنًا طويلا، مِنْ قبل تلاوته، وقبل درايتكم به، وأنا ما خطر على بالي، ولا وقع في ظني، أَفَلا تَعْقِلُونَ أني حيث لم أتقوله في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك، فكيف أتقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم أربعينَ سنةً، تعرفون حقيقة حالي، بأني أميٌّ لا أقرأ ولا أكتب، ولا أدرس ولا أتعلم من أحد.

فأتيتكم بكتابٍ عظيمٍ أعجز الفصحاء، وأعيا العلماء، فهل يمكن ـ مع هذا ـ أن يكون من تلقاء نفسي، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟

فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب، لجزمتم جزمًا لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن، وما أدراك ما عصر نزول القرآن؟ هو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي، وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها، حتى أدركت هذه اللغة أشدها؛ وتم لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها؟.. وما هذه الجموع المحشودة في الصحراء، وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك؟ إنها أسواق العرب تعرض فيها أنفس بضائعهم وأجود صناعاتهم؛ وما هي إلا بضاعة الكلام، وصناعة الشعر والخطابة، يتبارون في عرضها ونقدها، واختيار أحسنها والمفاخرة

بها، ويتنافسون فيها أشد التنافس، يستوي في ذلك رجالهم ونساؤهم، وما أمر حسان والخنساء وغيرهما بخافٍ على متأدب.

فما هو إلا أن جاء القرآن.. وإذا الأسواق قد انفضت، إلا منه، وإذا الأندية قد صَفِرت، إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يُباريَه أو يجاريَه، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى؛ ذلك على أنه لم يسد عليهم باب العارضة بل فتحه على مصراعيه، بل دعاهم إليه أفرادًا أو جماعات. بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، متهكمًا بهم متنزلًا معهم إلى الأخف فالأخف: فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله، ثم بسورة واحدة من مثله، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربة؛ فقال: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، فانظر أي إلهاب، وأي استفزاز! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ ثم هددهم بالنار، ثم سواهم بالأحجار، فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلَّمًا يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا...

حتى إذا استيأسوا من قدرتهم، واستيقنوا عجزهم، ما كان جوابهم

إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف. وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعًا عن نفسه بالقلم واللسان. اهـ.

فهذا القرآنُ هو شرفُنا وعزُّنا في الدنيا والآخرة، فقد قال تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى شَرَفِ الْقُرْآنِ، وَمُحَرِّضًا لَنا عَلَى مَعْرِفَةِ قَدْرِهِ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠]؛ أي: فيه شرفكم وفخركم وارتفاعكم، إنْ آمنتم بما فيه إيمانًا جازمًا قاطعًا، وامتثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي، ارتفع قدركم، وعظم أمركم، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: أفلا تعقلون يا مَن أُنزل عليكمُ القرآنُ ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون بِما فيه شرفكم في الدنيا والآخرة.

أفلا تعقل أيها المسلم، أنّ هذا القرآن هو سعادتك ورفعتُك وحياتُك، فكيف تهجُر قراءتَه، وتتكاسلُ عن العمل به؟.

الواحدُ منّا لو أُعطي وسامَ فخرٍ وشرفٍ، مِن شركةٍ أو مسؤولٍ كبير، لَتفاخر به، ووضعه في واجهة مجلسه، فما بالك ـ يا عبد الله ـ يُعطيك ربّك وخالقك أعظمَ وسام شرفٍ وفخرٍ لك، ثم لا ترفع به رأسًا، ولا تشعر بقيمته عندك، ووالله إنَّ الله سائلُك عن هذا الشرفِ ماذا عملتَ به: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

إنّ القلوبَ الحيّةَ تهتزّ عند سماع القرآن، وتَطْرَبُ الآذان الصاغيةُ عند تلاوته، بل إنّ كثيرًا من الكفار عرف منزلته، وأذعن لإعجازه، فهذا الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، الذي كان من أعظم الصَّادين عن الدين والإسلام، ومن أعظم الكفار عنادًا وكفرًا، جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: يَا عَمِّ، إِنَّ قَوْمَكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا.

قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ، فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتَعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ.

قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي أَكْثَرُهَا مَالًا.

قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ.

قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللهِ مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمُ بِرَجَزِهِ وَلَا بِقَصِيدِهِ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُهُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُوَ وَلَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ.

قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ.

قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ فِيهِ.

فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثِرُ، يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ١٨ ـ ٣٠].

ولم يتجرأ أنْ يستخرج منه خطأً لُغَوِيًّا أو بلاغيًّا أو غيرَ ذلك، وإنما لجأ إلى الإنكار والْجحد، وهي حيلة الجبان الضعيف.

أَتَى بِكِتَابٍ أَعْجَزَ الخلقَ لَفْظُهُ ... فَكلٌّ بَلِيْغ عُذْرُهُ صَارَ أَبْكَمَا
تَحَدَّى بِهِ أَهْلَ البلاغَةِ كُلَّهم ... فلم يَفْتَحوا فِيْمَا يُعَارِضُهُ فَمَا
حَوَى كُلَّ بُرهَانٍ عَلى كُل مَطْلَب ... وَيَعْرِفُ هَذَا كُلُّ مَنْ كَانَ أَفْهَمَا

هذا القرآن الكريم، مَحفوظٌ بحفظ الله تعالى له، منذ أنْ تكلّم به ربّ العزة والجلالة إلى وقتنا، لم يتغيّر منه حرفٌ واحد.

ومِمَّا يزيد القلب يقينًا وإيمانًا، ما عثرت عليه جامعة برمنجهام في بريطانيا من نسخةٍ للقرآن الكريم يُعتقد أنها الأقدم على الإطلاق.

واختبرت المخطوطة التي يبلغ عمرها ١٣٧٠ سنة في مختبر جامعة أُوكسفورد، وأظهرت النتائج أنها كتبت على جلد الغنم، أو الماعز، بينما يتوقع أن تعود المخطوطة للفترة الزمنية ٥٦٨ أو ٦٤٥

وهو ما قد يجعلها من أقدم نسخ المصحف في العالم.

ويحدد هذا الفحص عمر المخطوط بنسبة دقة تصل إلى ٩٥ في المئة، ويشير إلى أن النص الموجود على هذه الجلود يعود تاريخ كتابته إلى الفترة ما بين ٥٦٨ و٦٤٥ ميلادي.

ويقول البروفسور ديفيد توماس، الأستاذ المختص في المسيحية والإسلام: إن «هذه النصوص قد تعيدنا إلى السنوات الأولى من صدر الإسلام».

إذ تشير السيرة النبوية إلى أن الوحي أنزل، على الرسول محمد، بين ٦١٠ و٦٣٢ ميلادي، وهو تاريخ وفاته.

ويضيف البروفيسور توماس أن «العمر التقديري لمخطوط برمنغهام يعني أنه من المحتمل جدًّا أن كاتبه قد عاش في زمن النبي محمد».

وأكمل «أن الشخص الذي كتب هذه الصفحات لابد أنه عرف النبي محمد، وربما رآه واستمع إلى حديثه، وربما كان مقربًا منه، وهذا ما يستحضره هذا المخطوط».

وأشار إلى أن «هذه الأجزاء من القرآن التي كتبت على هذه الرقائق، يمكن، وبدرجة من الثقة، إعادة تاريخها إلى أقل من عقدين بعد وفاة النبي محمد».

وأضاف: «أن هذه الصفحات قريبة جدًّا من القرآن الذي نقرأه

اليوم، وهو ما يدعم فكرة أن القرآن لم يعرف إلا تغييرًا طفيفًا، أو أنه لم يطرأ عليه أي تغيير[١]، ويمكن إعادة تاريخها إلى لحظة زمنية قريبة جدًّا من الزمن الذي يعتقد بنزوله فيه».

وبقيت صفحات القرآن الكريم غير مكتشفة لمدة عقد من الزمن تقريبًا إلى أن اختارت باحثة تجري رسالة الدكتوراه إجراء اختبار الكربون المشع على المخطوطة للتعرف عليها أكثر وكانت النتائج مذهلة[٢].

ونحن لا نحتاج إلى مثل هذه الحقائق، فإن ما عندنا من الحقائق القطعية الأخرى أكبر وأكثر من هذا، ولكن نستأنس بهذه المخطوطة التي تُثبت أن هذا القرآن الذي بين أيدينا لم يتغير منذ نزوله إلى يومنا.

وهذا القرآن العظيم قاد كثيرًا من الكفار إلى الإيمان به، حينما تأملوا فيه وفي بلاغته وإعجازِه، وفيما يأمرهم وينهاهم.

ذكر القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره بسنده، عن يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ قال: دَخَلَ رَجُلٌ يَهُودِيٌّ مَجْلِسَ الْمَأْمُونِ، حَسَنُ الثَّوْبِ، حَسَنُ الْوَجْهِ، طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، فلما انتهى الْمَجْلِسُ وخرج الناسُ، دَعَاهُ الْمَأْمُونُ فَقَالَ لَهُ: إِسْرَائِيلِيٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ لَهُ: أَسْلِمْ حَتَّى أَفْعَلَ بِكَ وَأَصْنَعَ، وَوَعَدَهُ.

فَقَالَ: دِينِي وَدِينُ آبَائِي! فأبى أنْ يُسلم وَانْصَرَفَ.

قَالَ: فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَنَةٍ جَاءَنَا مُسْلِمًا، فَتَكَلَّمَ في الْفِقْهِ فَأَحْسَنَ الْكَلَامَ، فَلَمَّا انتهى الْمَجْلِسُ وخرج الناسُ، دَعَاهُ الْمَأْمُونُ وَقَالَ: أَلَسْتَ

(١) وهو الصواب بلا مرية.

(٢) نُشر الخبر في مواقع كثيرة، منها صحيفة: بي بي سي، بتاريخ: ٢٢ يوليو/تموز ٢٠١٥، وجريدة الرياض، يوم الأربعاء: ٦شوال ١٤٣٦، عدد: ١٧١٩٤.

صَاحِبَنَا بِالْأَمْسِ؟ قَالَ لَهُ: بَلَى. قَالَ: فَمَا كَانَ سَبَبُ إِسْلَامِكَ؟ قَالَ: انْصَرَفْتُ مِنْ حَضْرَتِكَ، فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت مع ما تراني حسنُ الْخَطِّ، فَعَمَدْتُ إِلَى التَّوْرَاةِ، فَكَتَبْتُ ثَلَاثَ نُسَخٍ فَزِدْتُ فِيهَا وَنَقَصْتُ، وَأَدْخَلْتُهَا الْبِيَعَةَ فَاشْتُرِيَتْ مِنِّي، وعمدت إلى الإنجيل، فكتبتُ ثَلَاثَ نُسَخٍ فَزِدْتُ فِيهَا وَنَقَصْتُ، وَأَدْخَلْتُهَا الْكَنِيسَةَ فَاشْتُرِيَتْ مِنِّي، وَعَمَدْتُ إِلَى الْقُرْآنِ، فَعَمِلْتُ ثَلَاثَ نُسَخٍ وَزِدْتُ فِيهَا وَنَقَصْتُ، وَأَدْخَلْتُهَا الْوَرَّاقِينَ فَتَصَفَّحُوهَا، فَلَمَّا أَنْ وَجَدُوا فِيهَا الزِّيَادَةَ وَالنُّقْصَانَ، رَمَوْا بِهَا فَلَمْ يَشْتَرُوهَا، فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا كِتَابٌ مَحْفُوظٌ، فَكَانَ هَذَا سَبَبُ إِسْلَامِي. قَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ: فَحَجَجْتُ تِلْكَ السَّنَةَ، فَلَقِيتُ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ فَذَكَرْتُ لَهُ الْخَبَرَ فَقَالَ لِي: مِصْدَاقُ هَذَا فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ.

قَالَ: قُلْتُ: فِي أَيِّ مَوْضِعٍ؟ قَالَ: فِي قَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، فَجَعَلَ حِفْظَهُ إِلَيْهِمْ فَضَاعَ، وَقَالَ ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩] فَحَفِظَهُ اللهُ ﷻ عَلَيْنَا فَلَمْ يَضِعْ[1]. اهـ.

وبعد هذا، هل يُمكن أنْ يكون هذا القرآن من عند أحدٍ غير الخالق الجليل ﷻ؟

كلا، بل هو من عند الحكيم الحميد، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: ٣٧].

«أَيْ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ فِي عُلُوِّ شَأْنِهِ، الْمُحَلَّى لَهُ فِي

(١) «تفسير القرطبي» (٦/١٠).

أُسْلُوبِهِ وَنَظْمِهِ، وَعُلُومِهِ الْعَالِيَةِ، وَحِكْمَتِهِ السَّامِيَةِ، وَتَشْرِيعِهِ الْعَادِلِ، وَآدَابِهِ الْمُثْلَى، وَتَمْحِيصِهِ لِلْحَقَائِقِ الْإِلَهِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَإِنْبَائِهِ بِالْغُيُوبِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ، وَجَعْلِ الْمَقْصِدِ مِنْ إِصْلَاحِهِ مَا بَيَّنَهُ آنِفًا مِنَ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَاجْتِنَابِ الضَّلَالِ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى، وَالِاعْتِمَادِ فِيهِمَا عَلَى الْعِلْمِ الصَّحِيحِ ـ مَا كَانَ وَمَا صَحَّ وَلَا يُعْقَلُ أَنْ يَفْتَرِيَهُ أَحَدٌ عَلَى اللهِ مِنْ دُونِهِ وَيُسْنِدَهُ إِلَيْهِ؛ إِذْ لَا يَقْدِرُ غَيْرُهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ، فَإِنْ فُرِضَ أَنَّ بَشَرًا يَسْتَطِيعُ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ، فَلَنْ يَكُونَ إِلَّا بَشَرًا أَرْقَى وَأَكْمَلَ مِنْ جَمِيعِ الْحُكَمَاءِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَكَذَا الْمَلَائِكَةِ وَمِثْلُهُ لَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى اللهِ، بَلْ قَالَ أَشَدُّ الْكُفَّارِ عِنَادًا وَعَدَاوَةً لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ: إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكْذِبْ عَلَى بَشَرٍ قَطُّ أَفَيَكْذِبُ عَلَى اللهِ؟!.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: ٣٧]؛ أَيْ: وَلَكِنْ كَانَ تَصْدِيقَ الَّذِي سَبَقَهُ مِنَ الْوَحْيِ لِرُسُلِ اللهِ تَعَالَى بِالْإِجْمَالِ كَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ بِدَعْوَتِهِ إِلَى أُصُولِ دِينِ اللهِ الْإِسْلَامِ، الَّتِي دَعَوْا إِلَيْهَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، بَعْدَ أَنْ نَسِيَ بَعْضُ ذَلِكَ بَقَايَا أَتْبَاعِهِمْ وَضَلُّوا عَنْ بَعْضٍ، وَشَوَّهُوهُ بِالتَّقَالِيدِ الْمُبْتَدَعَةِ مِمَّا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ مُحَمَّدٌ الْأُمِّيُّ ﷺ»[1].

إنّ هذا القرآن هو شفاءٌ من أمراض القلوب والحيرة والأحزان.

قال تعالى: ﴿...قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

(١) «تفسير المنار» (١١/ ٣٠٩).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: ٥٧].

وهو شفاءٌ من أمراض السحر والعين وغيرها.

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وهو لذّةٌ وأُنسٌ لقارئه وحافظه.

ولذا تجد أهلَ القرآن من أسعد الناس، ويجدون لذةً عجيبةً في قيامهم الليل.

قال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والله ما رجل خَلَى بأهله عروسًا، أقرَّ ما كانتْ نفسُه وآنسَ ما كان، بأشدَّ سرورًا منهم بمناجاته إذا خلوا به[(١)].

وكان ثابت البناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقوم الليل ويقول: ما شيء أجده في قلبي ألذ عندي من قيام الليل[(٢)].

هذه بعض ثماره وآثارِه.

وإنّ الذي لم يذق حلاوته لم يذق الحلاوةِ الحقّة، ومن لم يستمدّ منه سعادته فلن يجدها في غيرِه.

نسأل الله تعالى أنْ يرفعنا بالقرآن، وأنْ يُعزّنا بالإسلام، إنه جوادٌ كريم.

أما بالنسبة للنبي محمد ﷺ، فالحديث عنه وعن عظمته وشمائله يطول، وسأقتصر على دليلين عقليين في إثبات نبوّتِه:

(١) «موسوعة ابن أبي الدنيا» (١/ ٣٠٣).
(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا» (١/ ٢٧٧).

الأول: عظمةُ ما جاء به مُقارنةً بحياته البدائية:

من المقطوع به أنّ النبيّ ﷺ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ النُّبُوَّةِ مَشْهُورًا بَيْنَ قَوْمِهِ بِالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ـ وَإِنْ كَانَ فَصِيحًا بَلِيغًا ـ وَإِنَّمَا صَرَفَهُ اللهُ تَعَالَى أن يكون مشهورًا بِالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ لِتَكُونَ حُجَّتُهُ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ بِالْبَلَاغَةِ أَظْهَرَ وَأَبْعَدَ عَنِ الشُّبْهَةِ، فَلَا يُمكن أنْ يحتج أحدٌ عليه فيقولُ: إِنَّهُ تَمَرَّنَ عَلَى الْكَلَامِ الْبَلِيغِ وَتمرّس عليه الزَّمَنَ الطَّوِيلَ لكي يأتي يومًا ويزعم أنه نبيٌّ.

«فلَمْ يَكُنْ مَعْدُودًا قَبْلَ النُّبُوَّةِ فِي بُلَغَاءِ الْقَوْمِ بِالشِّعْرِ وَلَا الْخَطَابَةِ، وَإِنَّمَا كَانَ مَشْهُورًا بِالْأَمَانَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالصِّدْقِ»[(١)].

إنّ الْمُتجرّد العاقل ليرى في محمد أعظم مُعجزةٍ في التاريخ، وأعظم دليل على أنه هذا الكون له مُدبّرٌ حكيمٌ لطيف!

تأمل معي ـ أيها القارئُ الكريم ـ في حياة وسيرة النبي محمد قبل نُبوّتِه، حيث عاش أربعين سنةً لم يُؤْثَرْ عنه فيها شيءٌ من العلم، ولم يزاحم فحول البلاغة في نثر ولا نظم، ولم يكن إلا واحدًا من أفراد الناس، يعيش كما يعيشون، ويسير كما يسيرون ـ إلا أنه كان يجتنب سفاسف الأمور والأخلاق ـ.

وكان يصفُه قومُه بالصدق والأمانة لا غير، فلم يصفوه بالبليغ ولا بالحكيم، ولا بالفصيح ولا بالفهيم، ليس لأنه لم يكن كذلك، بل لأنه لم يتميّز وينفرد بها عن غيرِه.

ثم ما لبث هذا الرجل العاديّ، الذي وصفه ربّه بأنه كان قبل النُّبُوَّة ضالًا وغافلًا، ولا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، حيث قال تعالى:

(١) يُنظر: «تفسير المنار» (٥/ ٢٠١).

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: ٧]، يعني: ضالًّا غافلًا عما أنت عليه من الحق والهدى والعلم، فهداك للتوحيد والنبوة.

وقال عنه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ٣].

وقال عنه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

هكذا كان حالُه قبل بلوغه الأربعين سنة، والغالب أنّ من تجاوز الأربعين ولم يتميّز بشيءٍ قبلها، لن يَبْرُع ويتميّز بعدها، ولكنه ما لبث أنْ قلب الدّنيا، وغيّر موازين القوى المسيطرة فيها هو وأصحابُه الذين تبعوه وأيدوه في أقل من أربعين سنةٍ فقط!!

كيف يُمكن لرجلٍ واحدٍ أنْ يُحدث هذه النقلَة العظيمة العجيبة في زمن قصير جدًّا!

كيف اسْتطاع هو وأتباعه أنْ يُقنعوا الناس بدينهم وعقيدتهم بلا إكراه وإلزام، فقد وطئتْ أقدامُهُم في هذه الفترة الوجيزة كامل الجزيرة العربية، وفارس وأذربيجان شرقًا، والعراق والشام شمالًا، ومصر والسّودان والمغرب وتونس غربًا.

وأسلم أغلب سُكّان هذه البلاد طواعيةً ورغبة؛ لِما وجدوا من الفاتحين من سماحةٍ وعدل، وما لَمَسُوه من دينهم من حقّ مُوافق للعقل والفطرة.

فهل يُمكن لرجل هذه نشأتُه، أنْ يُحدث هذا كله دون مُعجزةٍ إلهيّة، وقوّةٍ خارجيّة؟

يقينًا: لا.

ثم انظر إلى النهضة العلمية التي نتجت عن دعوته، فقد أُلّفت مئات الكتب في تفسير وفهم القرآن الكريم، ومئات الكتب في الحديث والعقيدة والفقه والأصول والنحو والبلاغة والأدب وغيرها، وتخرج من

مدرسته مئات الآلاف من العلماء والأذكياء والقادة، الذين أكملوا نهضته، وأتموا ما أشاده، وتمسطوا بهديه ودينه.

وأضحت أمته اليوم تُناهز الْمليار بل وتزيد يومًا بعد يوم، ويدخل في دينه آلاف المخالفين والمحاربين والكارهين له.

ألا يكفي ذلك دلالةً بيّنةً على أنه وحيٌ يُوحى، وأنّ ما جاء به نورٌ وهُدى؟

بلى والله.

ثم تأمل: إذا أردنا مدح عالم قلنا: قرأ ودرس وتعلّم، إلا رسول الله ﷺ فإننا إذا بالغنا في مدحه قلنا: أمّي لم يقرأ ولم يدرس!

ومع ذلك خرَّج أعظم جيل!

قال الشيخ محمد رشيد رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ الْعَاقِلَ الْمُسْتَقِلَّ الْمُفَكِّرَ إِذَا عَرَفَ تَارِيخَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَارِيخَ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَإِنَّهُ يَرَى أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ نَشَأَ أُمِّيًّا لَمْ يَتَعَلَّمِ الْقِرَاءَةَ وَلَا الْكِتَابَةَ، وَأَنَّ قَوْمَهُ الَّذِينَ نَشَأَ فِيهِمْ كَانُوا أُمِّيِّينَ وَثَنِيِّينَ جَاهِلِينَ بِعَقَائِدِ الْمِلَلِ وَتَوَارِيخِ الْأُمَمِ وَعُلُومِ التَّشْرِيعِ وَالْفَلْسَفَةِ، حَتَّى إِنَّ مَكَّةَ عَاصِمَةَ بِلَادِهِمْ، وَقَاعِدَةَ دِينِهِمْ، وَمَثْوَى كُبَرَائِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ، وَمَثَابَةَ الشُّعُوبِ وَالْقَبَائِلِ لِلْحَجِّ وَالتِّجَارَةِ فِيهَا، وَالْمُفَاخَرَةِ بِالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ فِي أَسْوَاقِهَا التَّابِعَةِ لَهَا، لَمْ يَكُنْ يُوجَدُ فِيهَا مَدْرَسَةٌ وَلَا كِتَابٌ مُدَوَّنٌ قَطُّ، فَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ التَّامِّ الْكَامِلِ، وَالشَّرْعِ الْعَامِّ الْعَادِلِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُكْتَسَبًا وَلَا أَنْ يَكُونَ مُسْتَنْبَطًا بِعَقْلِهِ وَفِكْرِهِ. اهـ[1].

وقال في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾

(١) «تفسير المنار» (١١/ ١٣١).

[الأعراف: ١٥٧]: لَمْ يُنْقَلْ أَنَّ اللهَ ـ تَعَالَى ـ بَعَثَ نَبِيًّا أُمِّيًّا غَيْرَ نَبِيِّنَا ﷺ فَهُوَ وَصْفٌ خَاصٌّ لَا يُشَارِكُ مُحَمَّدًا ﷺ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَالْأُمِّيَّةُ آيَةٌ مِنْ أَكْبَرِ آيَاتِ نُبُوَّتِهِ، فَإِنَّهُ جَاءَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ بِأَعْلَى الْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَهِيَ مَا يَصْلُحُ مَا فَسَدَ مِنْ عَقَائِدِ الْبَشَرِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَآدَابِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَحْكَامِهِمْ، وَعَمِلَ بِهَا فَكَانَ لَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ فِي الْعَالَمِ مَا لَمْ يَكُنْ وَلَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مِنْ خَلْقِ اللهِ.

وَأُمِّيَّتُهُ ﷺ مِنْ أَعْظَمِ مُعْجِزَاتِهِ، وَأَيَّةُ آيةٍ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَى الرِّسَالَةِ أَقْوَى وَأَظْهَرُ مِنْ تَعْلِيمِ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَمْ يَتَعَلَّمْ شَيْئًا لِجَمِيعِ الْأُمَمِ مَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وَفَلَاحُهُمْ مِنَ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ؟!. اهـ[(١)].

ولذلك قال لقريشٍ حينما كَذَّبوه فيما جاءهم به من الوحي والقرآن: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦].

قال الشيخ محمد رشيد رَحِمَهُ اللهُ: أَيْ فَقَدْ مَكَثْتُ فِيمَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْكُمْ عُمُرًا طَوِيلًا مِنْ قَبْلِهِ وَهُوَ أَرْبَعُونَ سَنَةً، لَمْ أَتْلُ عَلَيْكُمْ فِيهِ سُورَةً مِنْ مِثْلِهِ وَلَا آيَةً تُشْبِهُ آيَاتِهِ، لَا فِي الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ، وَلَا فِي الْبَلَاغَةِ وَرَوْعَةِ الْبَيَانِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ إِنَّ مَنْ عَاشَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا كِتَابًا، وَلَمْ يُلَقَّنْ مَنْ أَحَدٍ عِلْمًا، وَلَمْ يَتَقَلَّدْ دِينًا، وَلَمْ يَعْرِفْ تَشْرِيعًا، وَلَمْ يُمَارِسْ أَسَالِيبَ الْبَيَانِ، فِي أَفَانِينِ الْكَلَامِ، مِنْ شِعْرٍ وَنَثْرٍ، وَلَا خَطَابَةٍ وَفَخْرٍ، وَلَا عِلْمٍ وَحِكَمٍ، لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَأْتِيَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ الْمُعْجِزِ لَكُمْ، بَلْ هُوَ يُعْجِزُ جَمِيعَ الْخَلْقِ حَتَّى الدَّارِسِينَ لِكُتُبِ الْأَدْيَانِ وَالْحِكْمَةِ وَالتَّارِيخِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ؟ فَكَيْفَ تَقْتَرِحُونَ عَلَيَّ إِذًا أَنْ آتِيَ بِقُرْآنٍ غَيْرِهِ؟..

(١) «تفسير المنار» (٩/ ١٩٥ ـ ١٩٦/ ٢٥٨).

وَقَدْ ظَهَرَ لِعُلَمَاءِ هَذَا الْعَصْرِ مَا أَيَّدَ دَلَالَتَهَا الْعِلْمِيَّةَ فَإِنَّهُمْ بِمَا حَذَقُوا عِلْمَ النَّفْسِ وَأَخْلَاقَ الْبَشَرِ وَطِبَاعَهُمْ، وَمَا عَرَفُوا مِنْ دَرَجَاتِ اسْتِعْدَادِهِمُ الْعِلْمِيِّ وَالْعَقْلِيِّ بِاسْتِقْرَاءِ تَارِيخِهِمْ، قَدْ حَقَّقُوا أَنَّ اسْتِعْدَادَ الْإِنْسَانِ الْعَقْلِيَّ لِلْعُلُومِ، وَاسْتِعْدَادَهُ النَّفْسِيَّ لِلنُّهُوضِ بِالْأَعْمَالِ الْقَوْمِيَّةِ أَوِ الْعَالَمِيَّةِ، يَظْهَرُ كُلٌّ مِنَ الِاسْتِعْدَادَيْنِ فِيهِ مَنْ أَوَائِلِ نَشْأَتِهِ، وَيَكُونُ فِي مُنْتَهَى الْقُوَّةِ وَالظُّهُورِ بِالْفِعْلِ عِنْدَ اسْتِكْمَالِ نُمُوِّهِ فِي الْعَقْدَيْنِ الثَّانِي وَالثَّالِثِ مِنْ عُمْرِهِ، فَإِذَا بَلَغَ الْخَامِسَةَ وَالثَّلَاثِينَ وَلَمْ يَظْهَرْ نُبُوغُهُ فِي عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي سَبَقَ اشْتِغَالُهُ بِهَا، وَلَا النُّهُوضُ بِعَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الْعَامَّةِ الَّتِي كَانَ اسْتَشْرَفَ لَهَا، فَإِنَّ مِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَظْهَرَ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا أَوْ ذَاكَ مِنْ بَعْدِهَا جَدِيدًا أُنُفًا وَيَكُونُ فِيهِ نَابِغًا نَاجِحًا. اهـ[1].

لقد ظهر جليًّا أنّ النبي مُحمّدًا لم يتلق أيّ علم من أحدٍ قبل النبوّة، ولم يكن له أُستاذٌ يستقي العلم والمعرفة منه، ولم يكن يقرأُ ويكتب.

وإنّنا إذا أردنا مدح عالم وخبير قلنا: قرأ كذا وكذا، ودرس كذا وكذا، وتلقى العلم من العالم الفلاني، واشْتغل في العلم والبحث سنواتٍ طويلة، إلا رسول الله! فإننا إذا مدحناه قلنا: أمّيٌّ لم يقرأ ولم يكتب، ولم يتعلم من أحدٍ؟ لماذا؟ لأنه تلقى أعظم علم من أعظم مُعلّم، وهو الخالق تبارك وتعالى.

ولذلك لَمَّا رأى كفار قريشٍ أنّ منطق النبي محمّد يعلو، والقلوبَ إلى ما جاء به تهفوا، وأنّ ما جاء به الهدى والنور قد تلقَّته القلوب السليمة بالقبول والتسليم، لصحةِ منطقه، وسلامته من الخرافات والأباطيل، رأوا أنّه لا يُمكن أنْ يأتي به من نفسه، بل لا بدّ منْ مصدرٍ

(١) «تفسير المنار» (١١/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢).

يتلقى منه هذه العلوم والبيان السحار للقلوب، وأبوا أنْ يقتنعوا أنه من الرب الخالق القادر، فلَفّقوا عليه تهمة الأخذ من غيرِه من البشر، وهم يعرفونه منذ نعومة أظفاره، ولم يروا أحدًا يُعلّمه، ولا رأوه يذهب إلى أحدٍ يتعلم منه، ولو علموا ذلك لسمّوه واشْتُهر بينهم.

فلذلك قَالُوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥].

فردّ الله تعالى عليهم: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا الكلام ـ لسخافته وكذبه وبهْته منهم ـ كُلّ أحد يعلم بطلانه، فإنه قد عُلم بالتواتر وبالضرورة: أن محمدًا رسول الله لم يكن يعاني شيئًا من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوًا من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه، وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه في صغره إلى أن بُعِث إلا الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره. فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، وَرَموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا ماذا يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، قال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨﴾ [الإسراء: ٤٨]. اهـ[(١)].

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٤).

الثاني: شهادة الأعداء والكفار له:

«لقد أنصف كثيرٌ من الغربيين محمدًا، وكان هذا الإنصاف ناتجًا عن دراسة موضوعية مستفيضة لسيرة وحياة رسول الله، وقد اكتملتْ في هذه الدراسة عناصر المنهج العلمي الحديث القائم على الملاحظة والتجربة والاستقصاء، فخرجت نتائجهم إيجابية تجاه رسول الله، وأصبحت شهاداتهم نورًا يهتدي به الباحثون عن الحقيقة في الغرب.

١ ـ الشاعر الفرنسي لامارتين[(١)]:

«أترون أن محمدًا كان صاحب خداع وتدليس، وصاحب باطل وكذب؟! كلا، بعدما وعينا تاريخه، ودرسنا حياته، فإنَّ الخداع والتدليس والباطل والإفك.. كل تلك الصفات هي ألصق بمن وصف محمدًا بها»[(٢)].

٢ ـ عالم الاجتماع غوستاف لوبون[(٣)]:

«إنني لا أدعو إلى بدعة مُحْدَثة، ولا إلى ضلالة مستهجَنَة، بل إلى دين عربي قد أوحاه الله إلى نَبِيِّه محمد، فكان أمينًا على بثِّ دعوته بين قبائل تلهَّتْ بعبادة الأحجار والأصنام، وتلذَّذَتْ بتُرَّهَات الجاهلية، فجمع صفوفهم بعد أن كانت مبعثرة، ووحَّدَ كلمتهم بعد أن كانت متفرِّقَة، وَوَجَّهَ أنظارهم لعبادة الخالق، فكان خير البرية على الإطلاق حُبًّا ونسبًا وزعامة وَنُبُوَّة، هذا هو محمد الذي اعتنق شريعته أربعمائة مليون مسلم،

---

(١) ألفونس دو لامارتين Alphonse de Lamartine (1790 - 1869): كاتب وشاعر وسياسي فرنسي، كان كثير السفر، أقام مدة في أزمير بتركيا. من كتبه: رحلة إلى الشرق، وتأملات شعرية.

(٢) «السفر إلى الشرق» (ص٨٤).

(٣) غوستاف لوبون Gustav Lobone (1841 - 1931): مستشرق فرنسي، قام بدراسات متخصصة في علم النفس والاجتماع، من أشهر كتبه: حضارة العرب، الذي يعدّ من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوربا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية. انظر: أحمد حامد: الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء ص٥٩ ـ ٦١.

منتشرين في أنحاء المعمورة، يُرَتِّلُونَ قرآنًا عربيًّا مبينًا»[١].

ويقول في موضع آخر: «فرسول كهذا جدير باتِّبَاع رسالته، والمبادرة إلى اعتناق دعوته؛ إذ إنها دعوة شريفة، قِوَامُهَا معرفة الخالق، والحضُّ على الخير، والردع عن المنكر، بل كل ما جاء فيها يرمي إلى الصلاح والإصلاح، والصلاح أنشودة المؤمن، وهو الذي أدعو إليه جميع النصارى»[٢].

٣ ـ المفكِّر البريطاني لين بول[٣]:

«إن محمدًا كان يَتَّصِفُ بكثير من الصفات؛ كاللطف والشجاعة وكرم الأخلاق، حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثَّر بما تَطْبَعُه هذه الصفات في نفسه، ودون أن يكون هذا الحكم صادرًا عن غير ميل أو هوًى، كيف لا؟! وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته سنوات بصبر وجَلَد عظيمين، ومع ذلك فقد بَلَغ من نُبْلِه أنه لم يكن يسحب يده من يد مصافحه حتى لو كان يصافح طفلًا! وأنه لم يمرَّ بجماعة يومًا من الأيام ـ رجالًا كانوا أم أطفالًا ـ دون أن يُسَلِّم عليهم، وعلى شفتيه ابتسامة حُلوة، وبنغمة جميلة كانت تكفي وحدها لتسحر سامعيها، وتجذب القلوب إلى صاحبها جذبًا!»[٤].

---

(١) هذا التعداد الذي ذكره غوستاف لوبون كان وقت إصداره لكتابه «حضارة العرب»، أما الآن عام ٢٠٠٨م فقد تجاوز عدد المسلمين في العالم ١,٣ مليار نسمة. انظر: جريدة الشرق الأوسط، على الرابط http://www.asharqalawsat.com.

(٢) «حضارة العرب» (ص٦٧).

(٣) لين بول (1853 - 1917) Lane Poole: مفكر إنجليزي، وهو واضع فهرست المسكوكات المحفوظة في دار الكتب المصرية عام ١٨٩٧م، من مؤلفاته: «رسالة في تاريخ العرب».

(٤) لين بول: رسالة في تاريخ العرب، نقلًا عن: عفيف عبد الفتاح طبارة: «روح الدين الإسلامي» (ص٤٣٨).

٤ ـ الأديب الإنجليزي جورج برنارد شو[(١)]:

«لقد درست محمدًا باعتباره رجلًا مدهشًا، فرأيته بعيدًا عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يُدْعَى منقذ الإنسانية، وأوربا في العصر الراهن بدأت تعشق عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك؛ فتعرف بقدرة هذه العقيدة على حلِّ مشكلاتها، فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي»[(٢)].

٥ ـ المستشرق الإنجليزي الكبير وليم موير[(٣)]:

ويقول: «امتاز محمد بوضوح كلامه، ويسر دينه، وأنه أتم من الأعمال ما أدهش الألباب، لم يشهد التاريخ مصلحًا أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق الحسنة، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد»[(٤)].

«ومهما يكن هناك من أمر فإن محمدًا أسمى من أن ينتهي إليه الواصف، وخبيرٌ به مَنْ أمعن النظر في تاريخه المجيد، وذلك التاريخ الذي ترك محمدًا في طليعة الرسل ومفكري العالم»[(٥)].

---

(١) جورج برنارد شو George Bernard Show (1856 - 1950): مؤلف إنجليزي مشهور، حاز على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٢٥م. وطُلِبَ منه أن يكتب مسرحية عن حياة محمد فرفض، وكان ذلك ضربة قاضية لمن أرادوا تشويه الإسلام. انظر: أحمد حامد: «الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء» (ص١٣ ـ ١٥).

(٢) الحسيني الحسيني معدي: «الرسول في عيون غربية منصفة» (ص٧٠).

(٣) وليم موير William Muir (1819 - 1905): مؤرِّخ ومستشرق إنجليزي، وكان يبحث في الإسلام ويدرس أخلاق نبي الإسلام منذ بداية وجوده في الهند عام ١٨٣٧م، ودرس الحقوق في جامعتي أدنبره وجلاسجو، ووصل إلى منصب رئيس جامعة أدنبره، انظر: عبد الرحمن بدوي: «موسوعة المستشرقين» (ص٥٧٨، ٥٧٩)، وأحمد حامد: «الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء» (ص٢٢، ٢٣).

(٤) وليم موير: «حياة محمد» (ص٣١).

(٥) المصدر السابق (ص٢٠).

٦ ـ المستشرق الأمريكي واشنجتون إرفنج:[١]

«كانت تصرفات الرسول في أعقاب فتح مكة تدلُّ على أنه نبي مرسل، لا على أنه قائد مظفَّر؛ فقد أبدى رحمةً وشفقةً على مواطنيه، برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه تَوَّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو»[٢].

٧ ـ رئيس الوزراء الهندي الأسبق جواهر لال نهرو:[٣]

«كان محمد كمؤسسي الأديان الأخرى ناقمًا على كثير من العادات والتقاليد التي كانت سائدة في عصره، وكان للدين الذي بَشَّر به ـ بما فيه من سهولة وصراحة وإخاء ومساواة ـ تجاوبٌ لدى الناس في البلدان المجاورة؛ لأنهم ذاقوا الظلم على يد الملوك الأوتوقراطيين والقساوسة المستبدين، لقد تعب الناس من النظام القديم، وتاقوا إلى نظام جديد، فكان الإسلام فرصتهم الذهبية؛ لأنه أصلح الكثير من أحوالهم، ورفع عنهم كابوس الضيم والظلم»[٤].

٨ ـ المؤرخ البلجيكي جورج سارتون:[٥]

«وخلاصة القول... إنه لم يُتَحْ لنبي من قبلُ ولا من بعدُ أن ينتصر

---

(١) واشنجتون إرفنج (1783 - 1859) Washington Irving: مستشرق ومؤرخ أمريكي، أولى اهتمامًا كبيرًا بالدراسات الإسلامية، من مؤلفاته: «حياة محمد»، «فتح غرناطة». انظر: نجيب العقيقي: «المستشرقون» (٣/ ١٣١).

(٢) واشنجتون إيرفنج: «حياة محمد» (ص٧٢).

(٣) جواهر لال نهرو (1889 - 1964) (J.Lal. Nahro): يعدُّ نهرو أحد زعماء حركة الاستقلال في الهند، وأول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال. تميز بالاشتراكية والعدالة، ولم يكن متعصبًا للهندوسية.

(٤) جواهر لال نهرو: «لمحات من تاريخ العالم» (ص٢٧).

(٥) جورج سارتون (1884 - 1956) George Sarton: بلجيكي الأصل، متخصص في العلوم الطبيعية والرياضية، درس العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٣١ ـ ١٩٣٢م، وألقى محاضرات حول فضل العرب على الفكر الإنساني. أبرز إنتاجه «المدخل إلى تاريخ العلم». انظر: نجيب العقيقي: «المستشرقون» (٣/ ١٤٧، ١٤٨).

انتصارًا تامًّا كانتصار محمد»[١].

٩ ـ مايكل هارت في كتابه «الخالدون مئة» ص١٣، وقد جعل على رأس المئة سيدَنا محمدًا ﷺ:

«إن اختياري محمدًا، ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ، قد يدهش القراء، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين: الديني والدنيوي.

فهناك رُسل وأنبياء وحكماء بدءوا رسالات عظيمة، ولكنهم ماتوا دون إتمامها، كالمسيح في المسيحية، أو شاركهم فيها غيرهم، أو سبقهم إليهم سواهم، كموسى في اليهودية، ولكن محمدًا هو الوحيد الذي أتم رسالته الدينية، وتحددت أحكامها، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته. ولأنه أقام جانب الدين دولة جديدة، فإنه في هذا المجال الدنيوي أيضًا، وحّد القبائل في شعب، والشعوب في أمة، ووضع لها كل أسس حياتها، ورسم أمور دنياها، ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم. أيضًا في حياته، فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية، وأتمها».

١٠ ـ آن بيزينت[٢]:

«من المستحيل لأي شخص يدرس حياة وشخصية نبي العرب العظيم ويعرف كيف عاش هذا النبي وكيف علم الناس، إلا أن يشعر بتبجيل هذا النبي الجليل، أحد رسل الله العظماء، ورغم أنني سوف أعرض فيما أروي لكم أشياء قد تكون مألوفة للعديد من الناس فإنني

---

(١) سارتون: «الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط» (ص٢٨ ـ ٣٠).
إلى هنا انتهى النقل من كلام الدكتور راغب السرجاني حفظه الله تعالى في موقعه: «قصة الإسلام» http://cutt.us/4mrz

(٢) في كتابه: «حياة وتعاليم محمد»، دار مادرس للنشر، ١٩٣٢م.

أشعر في كل مرة أعيد فيها قراءة هذه الأشياء بإعجاب وتبجيل متجددين لهذا المعلم العربي العظيم.

هل تقصد أن تخبرني أن رجلًا في عنفوان شبابه لم يتعد الرابعة والعشرين من عمره بعد أن تزوج من امرأة أكبر منه بكثير وظل وفيًا لها طيلة ٢٦ عامًا ثم عندما بلغ الخمسين من عمره ـ السن التي تخبو فيها شهوات الجسد ـ تزوج لإشباع رغباته وشهواته؟! ليس هكذا يكون الحكم على حياة الأشخاص.

فلو نظرت إلى النساء اللاتي تزوجهن لوجدت أن كل زيجة من هذه الزيجات كانت سببًا إما في الدخول في تحالف لصالح أتباعه ودينه أو الحصول على شيء يعود بالنفع على أصحابه أو كانت المرأة التي تزوجها في حاجة ماسة للحماية».

١١ ـ الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل[(١)] الحائز على جائزة نوبل:

«لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث هذا العصر أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خدّاع مزوِّر. وقد رأيناه طول حياته راسخ المبدأ، صادق العزم، كريمًا بَرًّا»[(٢)].

١٢ ـ جوته الأديب الألماني:[(٣)]

«إننا أهل أوربى بجميع مفاهيمنا، لم نصل بعد إلى ما وصل إليه

(١) كاتب إسكتلندي وناقد ساخر ومؤرخ. وكان لأعماله تأثير كبير بالعصر الفكتوري، تُوفي عام: ١٨٨١م.
(٢) «الأبطال» (ص٥٨ ـ ٦٠).
(٣) كاتب ألماني كبير، كتب في عدة مجالات، منها الشعر والمسرح والأدب واللاهوت والانسانية والعلوم، تُوفي عام: ١٨٣٢م.

محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد، وقد نجح محمد الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد».

«وكَتَبَ الْأُسْتَاذُ إِدْوَارْ مُونْتِيهِ الْمُسْتَشْرِقُ مُدَرِّسُ اللُّغَاتِ الشَّرْقِيَّةِ فِي مَدْرَسَةِ جِنِيفَ الْجَامِعَةِ فِي مُقَدِّمَةِ تَرْجَمَتِهِ الْفَرَنْسِيَّةِ لِلْقُرْآنِ مَا تَرْجَمْتُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ.

«كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا صَادِقًا كَمَا كَانَ أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْقَدِيمِ، كَانَ مِثْلُهُمْ يُؤْتَى رُؤْيَا وَيُوحَى إِلَيْهِ». اهـ[1].

(١) «المنار» (١١/ ١٢٧ ـ ١٢٨).

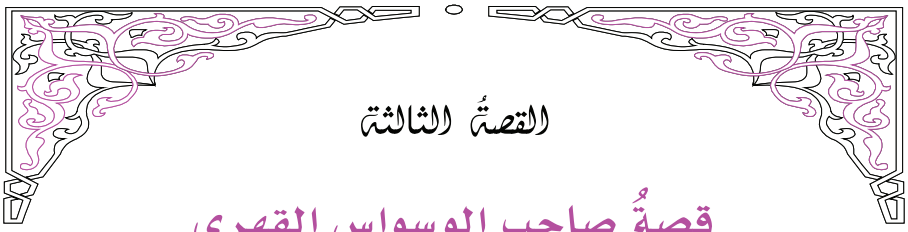

القصةُ الثالثة

قصةُ صاحب الوسواس القهري

اتصل عليّ رجلٌ شاكيًا ما آلت إليه حالُه من الوسواس القهري، وكيف تنكدّت حياتُه بسببه، حتى إنه يُعيد الوضوء والصلاة مرارًا وتكرارًا، بسبب شكه بنسيان شيءٍ من أركان الوضوء أو الصلاة، بل إنَّ الوسواس تجاوز إلى أعظم من ذلك، وهو شكه بأنه كفر بالله تعالى!

فقلت له: اعلم أنّ هذا المرض منتشرٌ بين الكثير من الناس، وأصابهم بالأمراض الخطيرة، حتى ببعضهم حدّ الجنون والانتحار، وهو داءٌ إن لم تُسارع بعلاجه فإنه سيزداد ويعظم، وحينها يصعُبُ علاجُه، ويندُر شفاؤه.

ولقد مرتْ عليّ حالاتٌ كثيرةٌ مثل حالتك وأشدّ، وبفضل الله تعالى تمّ علاجُها بالكليّة، وشُفي أصحابُها ولله الحمد والمِنَّة.

أحدُهم كان يقول لي: إذا مشيت بالسيارة أسير برفق خشية أن أصطدم بقِطٍّ أو حشرة، ولا يُمكن أنْ أرجع بالسيارة إلى الخلف، مخافة أن أطأ شيئًا منها.

وأخرى تقول لي: بأني أمكث بالحمام ساعة أو ساعتين للوضوء! حتى إني تعبت من ذلك، فقررت يومًا أن أترك الوضوء والصلاة من شدة المعاناة والآلام التي أجدها.

فقلت لها مُباشرةً: هناك سريرٌ بمستشفى المجانين ينتظرك! فصرخت وقالت: لماذا؟

قلت: لِمَا أراه من حالك الذي سيؤول إليه إن استمر وضعك على ذلك، فالموسوس لا يقف عند حدّ معين، بل يزداد وسوسةً وشكًّا وحيرةً يومًا بعد يوم.

قالت: وما الحل؟

قلت: إنْ كنت عازمةً على الشفاء والسلامة فاتبعي ما أقول لك..

ثم ذكرت لها الخطوات التي سأذكرها إن شاء الله تعالى.

فقلت لهذا الرجل: فإنْ شئت أنْ تُشفى وتعيش براحةٍ وطُمأنينةٍ فاتّبع النصائح التالية:

أولًا: أنْ تستعيذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم من حين ما تُوسوس أو تشك في أمر من الأمور، أو في عبادة من العبادت، أو في ذات الله تعالى، ثم انصرف ولا تلتفت إلى ما شككت فيه مهما قوي شكّك.

ولذلك قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولَ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ**». متفق عليه[1].

ثانيًا: اعلم أنّ الوسواس ضعيفٌ، وما أصبح قويًّا إلا بسبب ضعف إيمان وعلم الموسوس، فهو من كيد الشيطان، وقد قال تعالى عنه: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

فلذا لا بدّ من تقوية الإيمان ليضعف الوسواس، ولابد من التحصن بالعلم والقرآن ليمنع دخول الشكوك والوساوس إلى القلب.

ثالثًا: أن الشيطان ـ وهو الذي يُسبب الوساوس ـ قد عزم على

(١) البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

إغوائنا وإضلالنا، وأخبر الله تعالى عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسمًا: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [صٓ: ٨٢].

وقد علم الشيطان نعوذ بالله منه أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأنَّ عباد الله المخلَصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على من تولاه، وآثر طاعته على طاعة مولاه. فلذلك اسْتثناهم بقولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٤٠].

وذلك أنه حينما تكبر على الله تعالى وعصى وبغى، طرده تعالى من الجنة جزاءً لصنيعِه، فعزم على إغواء بني آدم حتى لا يدخل النار وحده، وحتى يُعارض حكمة الله تعالى في خلق بني آدم، الذي خلقهم للإصلاح والعبادة بإرادتهم وطوعهم، بخلاف الملائكة الذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

ولذلك قال لله تعالى مُتحدّيًا إيَّاه، مُقسمًا على إغْوائِنا وإضلالِنا: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٣].

أَيْ بِسَبَبِ إِغْوَائِكَ إِيَّايَ، أَيْ بِسَبَبِ أَنْ جعلْتَنِي غَاوِيًا فَسَأُغْوِي النَّاسَ.

ثم اسْتثنى الْمُخلَصين الصالحين، الذين أبوا طاعته، والرضوخ لوسوستِه.

ثم هدّده الله هو ومن أطاعه واتّبع هواه بأن يملأ جهنم منهم.

فاحذر أنْ تكون مِمَّن انقاد لإبليس اللعين، فتُحشر معهم في نار

الجحيم، فإنه لن يقف عند حدّ الوسواس المتعلق بالصلاة والوضوء ونحوه، بل لن يهدأ حتى يراك كافرًا مشركًا، تراكًا للصلاة والطاعة.

كيف لا، وهو الذي سعى لإغواء الناس بكلّ الطرق والسبل، حتى إنه قال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: ١٧].

ولقد ظنّ إبليس أنّ من الناس من سيتّبعُه ويسير على وفق ما خُطّط، فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠﴾ [سبأ: ٢٠].

قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: حَقَّقَ ظَنَّهُ عَلَيْهِمْ حِينَ انْخَدَعُوا لِوَسْوَسَتِهِ، فَهُوَ لَمَّا وَسْوَسَ لَهُمْ ظَنَّ أَنَّهُمْ يُطِيعُونَهُ، فَجَدَّ فِي الْوَسْوَسَةِ حَتَّى اسْتَهْوَاهُمْ فَحَقَّقَ ظَنَّهُ عَلَيْهِمْ». اهـ[1].

رابعًا: إذا علمت أنَّ الوسواس والشك من الشيطان، ليُنغص عليك حياتك وعبادتك، فكن على اليقين أنّه غيرُ ناصحٍ لك، فإذا وجدت في نفسك شكًّا في عبادةٍ ونحوها فقل كما أحدُ السلف الصالح حِيْنَمَا دخل المسجد فوسوس لَهُ الشيطان وقال له: أحدثتَ بعد وضوئك، فقال لَهُ: وَقَدْ بلغ هَذَا من نصحك؟

وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ، فهل الشيطان سينصح لك ويُذكرك ما ينفعك؟

لا، بل إنه لا همّ له إلا إشغالك وغمّك، وإبطال عبادتك.

خامسًا: أنك تأثم إذا أعدت وضوءك أو قطعت صلاتك شكًّا ووسوسةً.

فكيف تتقرب إلى الله تعالى بما يُخالفه ولا يُحبّه؟

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢٢/ ١٨٣).

وإذا دخلت الحمام فلا تغسل إلا الفرج فقط بعد البول ثلاث مرات، وإذا وسوس لك الشيطان فلا تلتفتْ أبدًا له، ثم أكمل وضوءك، وصلاتُك صحيحة.

واعلم أنّ الزيادة في الوضوء على ثلاث من تعدي حدود الله، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [الطلاق: ١].

وتوضأ النبيُّ ﷺ مرة مرة، ومرتين مرتين، وثلاثًا ثلاثًا، وقال: **«من زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم»**.

ولا تلتفتْ إلى خروج الريح منك بعد الوضوء، وعليك بالصلاة مباشرة.

واحذر أنْ تُعيد وتكرر أيّ كلمةٍ في الصلاة، بل أكمل صلاتك واعتقد أنَّهَا صحيحة.

فلا تُكرر الفاتحة ولا التكبيرة ولا قراءة سورة مع الفاتحة، وأما ما ورد فيه التكرار كالتسبيح في الركوع وفي السجود فلا بأس بالتكرار.

سادسًا: أن الشك بعد العبادة لا يُلتَفت إليه.

فإذا توضأت ثم شككت في عدم غسل أحد أعضائك فلا تلتفتْ إلى الشك، ولن يُؤاخذك الله بذلك أبدًا، بل سيُحاسبك لو الْتفت للشك وأعدت الوضوء.

وهكذا في كلّ العبادات.

قال العلامةُ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم أن الشكَّ لا بُدَّ فيه من معرفة ثلاث قواعد:

القاعدة الأولى: إذا كان الشكُّ بعد انتهاء الصَّلاة، فلا عِبْرَة به إلا أن يتيقن النقص، أو الزيادة.

مثال ذلك: بعد أن سَلَّمَ شَكَّ هل صَلَّى ثلاثًا أم أربعًا؟ نقول: لا

تلتفت لهذا الشكِّ، فلا تسجد للسَّهو، ولا ترجع لصلاتك، لأن الصلاة تمَّت على وَجْهٍ شرعي، ولم يوجد ما ينقض هذا الوجه الشَّرعي، فالمصلِّي لما سَلَّمَ لا إشكال عنده أن الصَّلاة تامَّة وبرئت بها الذِّمَّةُ، فورود الشكِّ بعد أن برئت الذِّمَّة لا عِبْرَة به.

ومثال ذلك: لو شَكَّ في عدد أشواط الطَّواف بعد أن فرغ من الطَّواف، هل طاف سبعًا أم ستًّا؟ فلا عِبْرَة به، فلا يَلتفت إليه؛ لأنه فَرَغَ من الطواف على وَجْهٍ شرعي فبرئت به الذِّمَّة، فورود الشَّكِّ بعد براءة الذِّمَّة لا يُلتفت إليه.

ومثله أيضًا: لو شَكَّ في عدد حصى الجِمَار بعد أن فَرَغَ وانصرف، فلا يَلتفت إليه؛ لأنه بفراغ العبادة برئت الذِّمَّة، فورود الشَّكِّ والذِّمَّة قد برئت لا يُلتفت إليه.

القاعدة الثانية: إذا كان الشَّكُّ وهمًا، أي: طرأ على الذِّهن ولم يستقر، كما يوجد هذا في الموسوسين، فلا عِبْرَة به أيضًا، فلا يلتفت إليه، والإِنسان لو طاوع التوهم لتعب تعبًا عظيمًا.

القاعدة الثالثة: إذا كَثُرت الشُّكوك مع الإِنسان حتى صار لا يفعل فِعْلًا إلا شَكَّ فيه، إنْ توضأ شَكَّ، وإنْ صَلَّى شَكَّ، وإن صام شَكَّ، فهذا أيضًا لا عِبْرَة به؛ لأن هذا مرض وعِلَّة، والكلام مع الإِنسان الصَّحيح السَّليم مِن المرض، والإِنسان الشكّاك هذا يعتبر ذهنه غير مستقر فلا عِبْرَة به. اهـ[1].

سابعًا: أنّك على يقين أنّ الوسواس والشك أصابك بالقلق والمشقة والحرج، ودين الله وشرعُه تعالى لا مشقة فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

(١) «الشرح الممتع» (٣/ ٣٧٩).

وما أنت فيه عسرٌ لا يُسر، ودين الله لا عسر فيه، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فكن على يقينٍ بأنّ ما تفعله من الوسواس في العبادات ليس هو من دين الله، بل أنت بهذا تُخالف مراد الله بك، وهو الرحمة واليسر.

ثامنًا: أنْ تشتغل بما ينفعك، وخاصةً القراءة النافعة المفيدة، فهي من أعظم أسباب انصرافك عن الوسواس.

هذه أهم الأسباب التي بها ـ بعد الله تعالى ـ تُعالج جميع الوساوس التي تمرّ عليك.

وإنّي ضامنٌ لك إذا عملتَ بِهَا أنْ تُشْفى وترى العافية والراحة والسعادة.

القصةُ الرابعة

قصةُ امرأةٍ تعتقد أنها مُصابةٌ بالمسّ

اتّصل عليّ أحدُ الأقارب قائلًا: لي صديقٌ أُصيبت زوجته بوسواسٍ شديد مُفاجئ، واضطراباتٍ وقلّة نوم.

فلم أشأ أنْ أردّه، وأنا لا أقرأُ على الناس، ولكنْ لا ينبغي لمن طُلب منه القراءة ـ وخاصَّةً من الأقارب والأصدقاء ـ أنْ يردّهم.

فجاء إليّ الرجلُ مُصْطَحِبًا زوجته المسكينة، وهي في حالةٍ يُرثى لها، حيث كانت تنتفض وترتجف بشدّة، وتشعر بأنها مُصابةٌ بتلبّس الجنيّ بها، فبدأتُ أسْأَلُها عن حالتها، ومتى طرأ عليها هذا المرض.

فما إنْ بدأ الحديث حتى كادت تجهش بالبكاء!

فطلبتُ منها أنْ تتوقف عن الحديث وقلت لها:

لقد سمعت كلامك، وتأملتُ في تصرّفاتك، فما أظن الذي بك إلا وسواسٌ وخوفٌ، قد يكون له سببٌ تعرفينه أو لا تعرفينَه.

واعلمي أنّك كلمّا تماديت في الخوف والوسوسة فإنه سيزداد عليك، ويُصبح هذا المرض اليسير العارضُ: مرضًا شديدًا مُزمنًا.

والشياطين تحوم حول الخائفين، ألم تسمعي إلى ما قاله ربنا تعالى وهو أصدق القائلين عن الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: كنا نرى أن لنا فضلًا على الإنس؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا، أي: إذا نزلوا واديًا أو مكانًا موحشًا من البراري وغيرها كما كان عادة العرب في

جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]؛ أي: خوفًا وإرهابًا وذعرًا، حتى تبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوُّذًا بهم، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة. اهـ.

وذكر بعضُ السلف أنّ الجن كانوا يَخافون من الإنس كما يَخاف الإنس منهم أو أشد، وكان الإنس إذا نزلوا واديًا هَرَب الجن، ولكنّ البشر بعد ذلك أصبح عندهم خوفٌ من الجن، فإذا نزلوا مكانًا قالوا: نعوذ بسيد أهل هذا الوادي.

فقال الجن: نراهم يَخافون منا كما نخافُ منهم! فتجرّؤوا عليهم، حتى أصابوهم بالخبل والجنون.

فكلمّا خفت من الجن تسلّطوا عليك، وهذا أمرٌ معروفٌ ملموس.

وسوف أقرأ عليك بثلاثة شروط:

الأول: أنْ تثقي بأنك لست مُصابةً بمسّ، وقراءتي لك من باب التبرك بالقرآن، فهو شفاءٌ من كلّ الأمراض بإذن الله تعالى، وليس خاصًّا بأمراض السحر والعين.

الثاني: أنْ تتدبري في الآيات التي سأتلوها عليك، فتدبُّرُها من أعظم أسباب زوال الهموم والخوف والأمراض النفسيّة وغيرها.

الثالث: أنْ تتوكلي على الله تعالى، وأنه هو الشافي الكافي، وأنّه هو القادر على شفاء مرضك، وعلاج مُشكلتك.

ثم بدأت القراءة عليها مُرتّلًا القرآن، بهدوءٍ وسكينة، فلمّا انتهيتُ رمقتُ يديها فإذا الرعشة زالت عنها، والخوف والقلق خف عليها.

فسألتها عن حالتها أثناء القراءة وبعدها.

فقالت: شعرتُ بالراحة والطمأنينة والحمد لله.

فقلت لها: هل شعرت بآلامٍ واضطرابات؟

قالت: لا.

قلت: هذا من أكبر الأدلة على أنك سالمةٌ من أمراض السحر والعين، وإنما أنت مُصابةٌ بمرض يسير، ربما يكون سببُه نقصًا في بعض فيتامينات الجسم، أو موقف قاسٍ مرّ عليك.

فقامت من عندي بحالةٍ غير تلك الحالة التي دخلتْ بها عليّ.

فأيقنت من هذا الموقف وغيرِه من المواقف الْمُشابهة بأنّ الوسواس من أخطر الأمراض، وأنّ الكثير من الرقاة يُخطئون في التعامل مع هؤلاء، فيظنون أنهم مُصابون بالمس أو العين، حيث إن أعراضهما متشابهة.

وأنا على يقينٍ بأني لو لم أُهدّئ من روعها، وأُسكّن من وسواسِها، وقرأتُ عليها دون المقدّمة التي ذكرتُها لها، وبدأت القراءة ونفثتُ عليها بصوتٍ مُبالَغٍ فيه: لصُرعت وصرخت، وازداد ارْتعاشُها وتوتّرها، فأصبح قراءةُ القرآن وبالًا عليها، لا شفاء لها، ولأصبحتُ مُسيئًا لا مُحسنًا، ومُمْرضًا لا مُداويًا.

وهذه قصةٌ أخرى فيها عبرةٌ وعظة: حضر عندي رجلٌ مُقيّد الأطراف، ومعه أخوه بعضده، فقال: أرجو أن تقرأ عليّ، فأنا مُصابٌ بمسٍّ.

فقلت: من أخبرك بهذا؟

قال: بعض الرقاة.

فقلت: لا عليك من فلان وعلّان، سأقرأ عليك وسيتبيّن من القراءة ما بك.

فقرأت عليه، فلمّا انتهيتُ أخبرتُه بأنّه مُصابٌ بالوسواس، وأنه قد يكون بك مرضٌ حسيّ وأنت لا تعرف، فنصيحتي أنْ تذهب للمستشفى لِتكشف عن جسمك.

فوالله ما إنْ سمع هذا الكلام، حتى أزال هو بنفسه الرباط الذي عليه، وقام يمشي بنفسه!

وأخبرني أخوه بعد ذلك بأنهم ذهبوا للمستشفى، فلمّا خرجت التحاليل وجدوه مُصابًا بسرطان الدّم!!

ثم تُوفي بعدها بقليل.

والمسكين يظنّ أنّه مُصابٌ بمسٍّ، فترك العلاج، واقتصر على الرقاة، فليتهم نصحوه من القراءة بالذهاب للمستشفى، فهذا لا يُعارض القراءة والرقية.

وهذا لا يعني أنّ الرقاة على هذا المنهج، بل الكثير منهم ـ جزاهم الله خيرًا ـ يسيرون على المنهج الصحيح في التعامل مع المرضى، ويُوجهونهم أحسن توجيه.

وقفةٌ مع الرّقاة: أيّها الرقاة الموفقون: إنّ مكانة الرقية والرقاة الصالحين لا تخفى، يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عن الرقية: هذا من أفضل الأعمال وهو من أعمال الأنبياء والصالحين؛ فإنه ما زال الأنبياء والصالحون يدفعون الشياطين عن بني آدم بما أمر الله به ورسوله كما كان المسيح يفعل ذلك وكما كان نبيِّنا ﷺ يفعل ذلك. اهـ[1].

ولِمَكانة الرقية وجب أنْ تكون على وفق السُّنَّة.

ومن الْملحوظات على بعض الرقاة: أنهم من حين ما يشُكُّون في

(١) «الفتاوى» (١٩/ ٥٧).

الإنسان أنه مصاب بالعين أو بالسحر قالوا له: أنت تحتاج إلى رقية!

نعم، كلنا يحتاج إلى رقية، ولكن المريض عند سماعه لهذا الكلام ستحوم حوله الوساوس والشكوك، وربما استسلم للمرض بحجة إصابته بالعين.

والأولى أنْ يُرشدوه إلى استعمال الرقية على كل حال، وأنها علاجٌ لأمراض العين والسحر، والهموم والغموم، والأمراض العضوية، كالسرطان وبعض أنواع الشلل.

جاء في «صحيح مسلم»[١] عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا اشْتَكَى مِنَّا إِنْسَانٌ، مَسَحَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**» فَلَمَّا مَرِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَثَقُلَ، أَخَذْتُ بِيَدِهِ لِأَصْنَعَ بِهِ نَحْوَ مَا كَانَ يَصْنَعُ.

فقد كان يستعمل الرقية لكل إنسان يشتكي، ولم تُحَدِّد عَائِشَةُ نوع المرض، فيشمل كل مرض عضوي أو نفسي.

وروي عنها[٢] أنه كَانَ إِذَا عَادَ مَرِيضًا يَقُولُ: «**أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِهِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**».

وروي عنها[٣] أنها قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ»..

فكان يرقي كل مريض.

---

(١) (٢١٩١).
(٢) (٢١٩١).
(٣) (٢١٩٢).

ولا يخفى أنه أقرَّ الصحابة على الرقية على اللديغ.

ففي «الصحيحين»[١] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، قَالَ: انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللهِ إِنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ وَاللهِ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ، فَانْطَلَقَ يَتْفِلُ عَلَيْهِ، وَيَقْرَأُ: الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ[٢]، فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ[٣]، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ**»، ثُمَّ قَالَ: «**قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا**» فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فالمقصود أنّ الجزم بأن المريض مصابٌ بالعين أو السحر خطأٌ إلا عند التأكد. وينبغي على الراقي أنْ يَحُث المريض على استعمال الرقية لا لكونه معيونًا أو مسحورًا، ولا حتى أنه مشكوك بإصابته، بل للاستشفاء

(١) البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١).
(٢) أي: كأنما فُك من حبل كان مشدودًا به.
(٣) أي: علة ومرض.

المطلق بالرقية، وقد كَانَ قدوتُنا ﷺ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ، قالت عائشةُ رضي الله عنها: فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَأَمْسَحُ عَنْهُ بِيَدِهِ، رَجَاءَ بَرَكَتِهَا. متفق عليه[(١)].

فنحن أحق أن نرقي أنفسنا وغيرنا عن كل مرض.

ثم ينبغي للرقاةِ ـ جزاهم الله خيرًا ـ أن يأمروا المريض بأن يُجاهد نفسه في التخلص مما أصابه، ويُرشدوه إلى الأسباب الحسية ونحوها.

ومن الْخَطأ قول بعض الرقاة: إنَّ تثاؤبَ الراقي دليل على إصابة المريض بالعين!!

وقد أنكر ذلك الشيخ عبد الله السدحان ذلك في كتابه القيم: «كيف تعالج مريضك بالرقية»، بل قال: هذا دليل قطعي على أن هذا الراقي مصاب بالعين وهو لا يعلم!!

فكثيرًا ما نسمع من الناس أنَّ الرقاةَ جزموا بأنهم مصابون بالعين؛ لأن التثاؤب اشْتَدَّ عليهم أثناء الرقية!!

فسبحان الله! هل تثاؤب الذي قرأ القرآن يدل على إصابة المقروئ عليه؟ أم العكس صحيح؟

فالواجب على الرقاة ألا يزيدوا المريض وسوسةً وشكًّا، بل يُطمئنونه بأنه بخيرٍ وصحة، وإن أيقنوا بأنه مُصابٌ بالسحر أو بالعين فلا بأس بإخباره برفقٍ.

وكم سمعتُ بنفسي من أصدقاء وأقارب أُصيبوا باضطرابات شديدة، فذهبوا لبعض الرّقاة، فلمّا قرؤوا عليهم أخبروهم بأنهم مُصابون بمسّ أو بعين، بل يُحدّثني أحدُ الثقات بأنَّ الراقيَ قال: فيك ثلاثةٌ من الجنّ!!

(١) البخاري (٥٠١)، ومسلم (٢١٩٢).

فذهبوا إلى المستشفى وكشف الطبيب عليهم وأخبرهم بأنّ فيهم كذا وكذا من نقصٍ في الفيتامينات، أو اضطرابات في الجهاز الهضمي، أو نحو ذلك.

وآخر دخل عليّ مُكبَّلَةً يداه ورجلاه بأكياسٍ! يعضُدُه أخوه، والعرق يتصبّب منه، ووجهُهُ شاحبٌ خائف، فهدّأتُ من روعه، وأخبرني بأنّ الراقيَ الفلانيّ أخبره بأنه مُصابٌ بالمسّ!.

فنصحته بأن يذهب للمستشفى ويحلل تحليلًا شاملًا، فلما ذهب تبيّن بأنه مُصابٌ بسرطان في الدم! وبعد عدة أشهر توفي رَحِمَهُ اللَّهُ.

فانظر ـ رحمك الله ـ كيف التأثير السلبيّ على المريض من جراء الاستعجالِ بالحكمِ بالمرض ونحوِه.

* * *

الوسائلُ الصحيحةُ والخاطئةُ في الوقايةِ من العين:

هناك طُرقٌ صحيحة وطرُقٌ خاطئة للوقاية من العين والسحر، فالمؤمنُ العاقل هو الذي يسلك الطُرُقَ الصَّحيحةَ السليمة، ويبتعدُ عن الخاطئةِ السقيمة.

فمن الوسائلِ النافعة السليمة: عدمُ إظْهار المحاسن والْمَفاتن، وخاصةً من الصبيان والنساء، فالمبالغةُ في اللباس والزينة، مع ما يُصاحبُها من العجب والبَطَر غالبًا، تجعلُ صاحبها مُعرَّضًا للعائنين والحاسدين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن علاج ذلك والاحترازِ منه، سَترُ محاسن مَن يُخاف عليه العَيْن، بما يردُّها عنه[1].اهـ.

(١) «زاد المعاد» (٤/ ١٥٤).

فهذا السبب لا بأس به، وهو وسيلةٌ لسدِّ الفتن والْمُغرَيات.

ومِنها أيضًا: الْمواظبةُ على الأورادِ والأذكار، وقراءتُها بتأمُّلٍ واسْتشعار، ويقينٍ بنفعها، وإيْمانٍ بِجَدْواها، فأكثرُ الناس يقرؤها دون تأمُّلٍ لِمَعانيها، بل ربَّما شَرَدَ ذِهْنُه أثناء قراءتها، فحينها لا تؤتي الأورادُ أُكُلَها، ولا تُحصِّن صاحبَها، إلا أن يشاء الله.

ومن التعوُّذاتِ والرُّقَى: الإكثارُ من قراءة المعوِّذتين، وفاتحةِ الكتابِ، وآيةِ الكُرسي، ومنها التعوذاتُ النبوية، نحو: «أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّاتِ مِن شرِّ ما خَلق».

ومنها: «اللَّهُمَّ أنت ربِّي لا إلٰه إلا أنتَ، عليك توكلتُ، وأنتَ ربُّ العرشِ العظيم، ما شاء اللهُ كان، وما لم يشأْ لم يكن، لا حَوْلَ ولا قُوَّة إلا بالله، أعلم أنَّ اللهَ على كُلِّ شيء قديرٌ، وأنَّ الله قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحصَى كُلَّ شيءٍ عددًا، اللَّهُمَّ إني أعوذُ بِكَ مِن شَرِّ نفسي، وشَرِّ الشيطانِ وشِرْكه، ومِن شَرِّ كُلِّ دابةٍ أنتَ آخذٌ بناصيتها، إنَّ ربِّي على صِراط مستقيم».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ومَن جرَّب هذه الدعوات والعُوَذَ، عَرَفَ مِقدار مَنْفعتها، وشِدَّةَ الحاجةِ إليها، وهي تمنعُ وصول أثر العائن، وتدفعُه بعد وصوله بحسب قوة إيمان قائلها، وقوةِ نفسه واستعدادِه، وقوةِ توكله وثباتِ قلبه، فإنها سلاح، والسلاحُ بضاربه[1]. اهـ.

تأمل قوله: فإنها ـ أي: الرقى والأذكار ـ سلاح، والسلاحُ بضاربه، فالرقى والأذكار، سلاحٌ قاطع، وعلاجٌ نافع، لا بدّ أنْ يكون

(١) «زاد المعاد» (٤/ ١٥٤).

مُوردُها صحيحَ الإيمان، سليمَ الجنان، واثقًا مُتوكلًا على الملكِ الديَّان.

فمَن يُدْمِنُ على هذه الأدعيةِ وغيرِها، بيقينٍ وإيمان، وتوكلٍّ على الرحيم الرحمن، كيف ستصيبه سهامُ الشياطين، وقد اسْتجار بالله رب العالمين، كيف ستصيبه عينٌ مِن أَتْفَهِ البَشَر، وقد لاذ واعْتصمَ بالله المقتدر.

إنه التوكل على الله وحده، وعدمُ الخوف من هؤلاء العائنين أبدًا، ولو هدَّد وتوعَّد، بأنْ يُصيبَه بالعين إن لم يفعلْ ما طَلَبْ.

وإن من المحزن حقًّا ما نراه مِمَّن قلَّ يقينه، وضعُفَ إيمانه من والخوف الهلع، والجُبْن والفزع، من العائنين والسَّحرة، حتى وصل الحال ببعضهم أنه يَكتم ويُخفي ما أنعم الله عليه خشيةَ العين، وإذا سُئل عن حاله ومعيْشته تظاهر بأنها سيِّئةٌ رديئة، قليلةٌ مُتردِّيه، فهو اتَّخذ ذلك وسيلةً لدفعِ العين، لكنَّها وسيلةٌ خاطئةٌ آثمة؛ لأنها تَجْمع بين مفسدتين عظيمتين، ومَعْصيتين كبيرتين:

المفسدةُ والمعصيةُ الأولى: جحدُ نعمة الله عليه، فالله يُعطيه ثم ينكر عطاءه، ويُنعم عليه ثم يُنكر نِعَمَه، بحجَّةِ الخوف من العين، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ ـ بعد أنْ عدَّد عليه نعمه وآلاءَه عليه ـ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: وكما كنت عائلًا فقيرًا فأغناك الله، فحدِّث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء المأثور النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها».

وعن أبي نضرة قال: كان المسلمون يرون، أن مِن شكر النِّعَم أنْ يحدِّث بها[(١)]. اهـ.

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٤٨٣)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

المفسدةُ والمعصيةُ الثانية: ضعفُ إيمانِه ويقينِه بالله، وانْعدامُ ثقته بحفظِ الله.

فأين يقينُه بالأذكار والأوراد، التي هي حِرزٌ متين، وحِصْنٌ حصين، من العائن والساحرِ والشَّيطانِ الرَّجيم، أين إيمانه بقول الله جل وعلا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أين إيمانه بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقد سببَّ هذا الخوفُ من العائنين تسلُّطهم على الناس، حتَّى أصْبح بعضُ هؤلاء العائنين يُهدِّد أنْ يُصيبَ بالعين من لم يمْثِلْ لطلبه، ويفعلْ ما يريد، ولم يجد أحدًا يردَعُه ويُخوِّفه بالله.

يقول أحدُ طلابِ العلمِ وفَّقه الله: عندما عملت في إحدى الدوائر الحكومية، وخالطت الموظفين، تعجبت من أحد الموظفين، قد اشْتُهِر بينهم بأنه عائن، وأنه لا يكاد يخطئ، مَن أراد إصابتَه بالعين، وكانوا يَفْرُقون منه ويخافونه؛ لخوفهم أن يصيبهم بالعين.

ونَتِيجَةً ذلك، طغى وتكبر عليهم، حتى أن بعضهم عندما يخطئ عليه سهوًا، يسارع بطلب العفو والصفح منه؛ خوفًا من ذلك.

ولم يكتف هذا العائنُ بذلك، بل جعل هذا الأمر دَيْدَنَهُ في كلِّ ما يطلبه، أو يأمر به أو ينهى عنه.

ووصل بهمُ الخوفُ والرُّعبُ منه، أنَّه كلَّما مرض منهم أحد جاء إليه يطلب منه أن يقرأ عليه، أو يعطيه شيئًا من فضول مائه وما أشبه ذلك.

ولَمَّا رأيت ذلك قلت: سبحان الله! أين التوكل على الله؟ أين الاستجابة لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أين المحافظون على الأذكار، فالله يحفظ من يحفظه.

فذهبت إليه ناصحًا ومحذِّرا، فقلت له: سأروي لك يا فلانُ قصةً، لعلها تكون لك عبرة وعظة، فذكرتُ له قصةً ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبي عبد الله السَّاجي، أنه كان في بعض أسفاره للحج أو الغزو على ناقة فارِهَةٍ، وكان في الرفقة رجل عائن، قلَّما نظر إلى شيء إلا أتلفه، فقيل لأبي عبد الله: احفَظْ ناقَتكَ مِنَ العائِن، فقال: ليس له إلى ناقتي سبيل، فأُخْبِرَ العائِنُ بقوله، فتَحيَّنَ غَيبة أبي عبد الله، فجاء إلى رَحْله، فنَظر إلى الناقةِ، فاضطربتْ وسقطت، فجاء أبو عبد الله، فأُخْبِرَ أنَّ العائِنَ قد عانها، وهي كما ترى، فقال: دُلُّوني عليه، فدُلَّ، فوقف عليه وقال: بسم اللهِ، رُدَّتْ عين العائن عليه، ﴿...فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: ٣، ٤]، فخرجتْ حَدَقَتا العائنِ، وقامت الناقةُ لا بأسَ بها.

قال: فتعجَّب منها ومِن دعاء الرجل الصالح، وقلت له: اتق الله، ولا تتعرض لأحد، وإلا دعوتُ عليك بهذا الدعاء، ثم لا ينفعك الندم، فدعوةُ المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، ولأول مرةٍ يسمع أحدًا يُهدِّده ويُخوِّفه بالله، فرأيت علاماتِ الخوفِ والإذْعانِ عليه، فتغيَّر حاله بعد ذلك، وذهب واعتذر لكلِّ من آذاه، وتعهد أن يذكرَ الله ويدعو بالبركة عندما يرى ما يُعجبه، وحَسُن حاله كثيرًا..

فهكذا يجب علينا أنْ نكون، مُوقنين واثقين بالله، ولا نخشى من العائنين أبدًا، بل يجب أنْ نُناصحهم ونُنْكرَ عليهم، فإنَّه لن يُصيبَنا شيءٌ لم يكتبْه الله علينا، ولنستحضرْ ما رواه الترمذيُّ وصححه[1]، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي

(١) (٢٥١٦).

أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ.

الخاتمة

نسأل الله تعالى، أنْ يعيذنا من شرّ العائنين والساحرين، وأنْ يرزقنا الثقةَ واليقين بالله رب العالمين، إنه سميعٌ قريبٌ مجيب.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آلِه وصحبِه أجمعين.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
القصةُ الأولى: قصتي مع الطالب المشكك في الدين	٧
القصةُ الثانية: حوار ونقاشٌ قاد فتاةً من الإلحاد إلى الإيمان	٢٩
أخطاء يَرْتَكبها الكثير ممن يُحاور ويُناقش أحدًا يُخالفه	٤٩
الأدلةُ العقليّة على وجود الله تعالى وصدق القرآن	٥١
إثبات نبوّةِ النبي محمد ﷺ	٧٣
القصةُ الثالثة: قصةُ صاحب الوسواس القهري	٨٧
القصةُ الرابعة: قصةُ امرأةٍ تعتقد أنها مُصابةٌ بالمسّ	٩٥
وقفةٌ مع الرّقاة	٩٨
الوسائلُ الصحيحةُ والخاطئةُ في الوقايةِ من العين	١٠٢
الخاتمة	١٠٩